هكذا أبعدوني بيتي إلى جنوب لبنان

بقلم / غسان عيسى محمد هرماس

ر . أ (1993/10/1135)
1–فلسطين – تاريخ 2– المبعدون
أ– العنوان
(تمت الفهرسة من قبل المكتبة الوطنية)
منشورات فلسطين المسلمة
حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
لندن ، 1993

بسم اللّه الرحمن الرحيم

تقديم

لقد مرت الأيام على المبعدين في مرج الزهور ثقيلة ثقل الجبال التي ألقيَ بهم على سفوحها ، و صعبة كصعوبة الصخر التي نصبوا خيامهم عليها . فمنذ أن داهم جنود الاحتلال بيوتهم أو زنازينهم ، و اقتادوهم منها ، و هم في عنت و ضيق ، الأعين معصوبة ، و الأيدي مقيّدة إلى ظهورهم ، و الجند يدفعونهم إلى الشاحنات دفعاً ، و يحشرونهم في صناديقها حشراً .
و رأى بعضهم ، قبل أن تعصب عيناه ، و تخيّل الآخرون الهلع والذهول الذي أصاب أطفالهم و أزواجهم و آباءهم و أمهاتهم ، و الجند يقتادونهم إلى المصير المجهول ، و ألقيَ بالقوم في مرج العقارب — الذي أصبح يعرف بمرج الزهور – و أطلقت عليهم الرشاشات ليبتعدوا عن حدود فلسطين ، ففتحوا أعينهم على مأساة دامت عدة أشهر .
و لكن البرد القارص ، و الثلوج المتراكمة حولهم و فوق خيامهم و نقص الأطعمة ، و ما إلى ذلك . لم يشغلهم عن أهلهم و ذويهم عن أطفالهم و أزواجهم ، عن أرضهم و مقدساتهم . فبدؤوا يرسلون الرسائل تلو الرسائل .
و هذه مجموعة معبرة من الرسائل المبعدين يرسلها مؤلفها الشيخ / غسان هرماس – المحاضر بكلية أصول الدين بجامعة القدس – إلى أبنائه في عددٍ من المناسبات ، فقد مرّت أعياد و مناسبات و المبعدون بعيدون عمن يشاركونهم الفرح في المناسبات - مرت الأعياد و مر رمضان الكريم ، و الأطفال في الوطن المحتل يسألون أمهاتهم عن آبائهم – أين هم ؟ و متى سيعودون ؟ من سيشتري

لنا حلوى العيد ؟ و من سيذبح أضحيتنا ؟ . و من سيوقظنا للسحور ؟ .. و غير ذلك من أمور ..

غسان يكتب أيضاً إلى ابنته الصغيرة (صفية) تلك التي لم تكن قد عرفت الكلام قبل إبعاده - اللهم إلا (بابا و ماما) .

غسان يرسل إلى طالباته في دراستهن ، يشجّعهن على الدراسة و التزام الطريق ، و السير في الحياة حسبما كان يلقى عليهن من التوجيهات ، و بما يفرض دينهن من التعليمات .

غسان يرسل إلى أخيه الذي تولّى بعد إبعاده رعاية أولاده جزءاً من واجبه – و لكن المبعد الحساس ، يعرف لأهل الفضل فضلهم .

غسان أيضاً يرسل إلى زوجته ، يثبّت عزيمتها ، و يبارك صبرها و يوصيها بأن تأخذ دوره و دورها في رعاية أطفالهما .

غسان أيضاً يكتب رسالة خاصة للمسجد الأقصى المبارك . و المسجد الأقصى في حاجة إلى رسالة من الأمة كلها ، و لكن ليست رسائل شوق كرسائل المبعدين . إنه في حاجة إلى كتائب الإيمان ، و جنود الرحمن ، لتستنقذه من حبائل المحتلين التي لا تفترق عن حبائل الشيطان . المسجد الأقصى في حاجة إلى عمر و صلاح الدين ، فهل يتحقّق هذا الحلم على أيدي هذا الجيل ، أم سيبقى الأمر آمالاً كآمال المبعدين ، و تشوّقات كتشوقات المحبين .

إن الجيل و هو يقرأ (رسائل مبعد) هذه ، سيطّلع على مأساة داهمت أُمتنا في هذا العصر ، لم يسبق لها مثيل.. و أخاله سيعمل جاهداً على إنقاذ أُمتنا من هذه المأساة ، و استنقاذ فلسطين من براثن الغزاة المحتلين ، و تحقيق آمال كلّ المبعدين في العودة إليها ظافرين و منتصرين ، و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..**د. محمد صيام 1993/10/18م**

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على رسوله الأمين و بعد ،

فإني لست شاعراً و لا أديباً ، و لكنني مسلم قضت صولة الظلم و دولة الطغيان بإبعادي عن وطني و أهلي و أحبائي ، فكان إبعادي في 1992/12/17م ، و كنت من ضمن أربع مئة و خمسة عشر مبعداً ، قذفت بهم الحافلات الصهيونية إلى جنوب لبنان .

و في مخيم العودة أمسكت قلمي لأسجّل أحداث اعتقالي ، و وقائع إبعادي ، لتكون تاريخاً يحكي قصة الظلم و الظالمين ، و عتو المعتدين على صفوة صالحة من أبناء فلسطين آثرت الصبر و الثبات و الصمود في مخيم المبعدين ، وسط الثلوج و الصخور في مرج الزهور على سكنى الفنادق و القصور . و لم أعدّ الحقيقة في تدوين ما دوّنت ، فإن وفقت فيما كتبت فبتوفيق من اللّه تعالى ، و إلا فإنني أستغفر اللّه أتوب إليه ..

و الله الموفق و الهادي إلى سواء السبيل .**غسان هرماس1993/2/1**

مداهمة و اعتقال

كانت ليلة من ليالي الشتاء الباردة ، فزعت فيها أيما فزع ، فقد كانت أصوات الرجال ، و خفق النّعال ، و قرع الأبواب بالأقدام و أعقاب البنادق كفيلة بأيقاظ أهل الحَيّ ، فضلاً عن إيقاظي و زوجتي ... حركات تعوّدنا عليها ، و أصوات من مألوفات

مسموعاتنا ... أيقنت منذ الوهلة الأولى أنّ جنود الاحتلال يحيطون ببيتي ، و أني أنا المطلوب ..
لقد أصبح يوم ذكرى انطلاقة حركة المقاومة الإسلامية (حماس) 12/14/ من كلّ عام يوماً من أيام فخارنا و مجدنا ، فهو من ناحية يحمل صورة البطولة التي صنعها تلاميذ القسّام بعملياتهم الفريدة ، و يحمل من ناحية أخرى صور الهلع الصهيوني المتمثل في جمع آلاف الشّباب المسلم الفلسطيني ، و الزّج بهم في دهاليز المخابرات ، و غرف التحقيق ، و عنابر السجون ..
كانت الساعة قد قاربت العاشرة و النصف من مساء يوم الإثنين 1992/12/14 ، حينما اقتربت من نافذة الباب الصغيرة لأجد رجال المخابرات ، و حوله الجند يقولون بعربية تشوبها عبرية : (إفتح إحنا جيش) ، و على الفور قلت : "انتظر قليلاً ، و سارعت لأشعر زوجتي التي كانت قد أخذت أُهبتها فتستَّرت و لبسَت جلبابها" .. فتحت الباب لتندفع ثلة من الجنود ، يدلف خلفهم ضابط المخابرات بوجهة السمج المنكود المعروف لأهل البلد ، و معه مخبر صغير يدربه على فنون دخول البيوت و اعتقال الناس .

قال : أنت فلان ... ؟

قلت : نعم .

قال : هات الهوية .

فأتيته بها بعد أن أخرجت منها رخصة قيادة السيارة ، رأيت معه هوية أخرى ، أدركت أنها لأخي الذي كان قد فتح له البوابة الرئيسية .

قال : مَن عندك ؟

قلت : لا أحد ، سوى زوجتي و أولادي .

قال : إلبس ثيابك .

جمعت عليّ ثيابي ، و أشرت لزوجتي أن تأتيني بحذائي ، فجاءتني بحذاء رقيق .

فقال ضابط المخابرات : إلبس بوت .

فأدركت حينها أن الرحلة طويلة و شاقة .

شرع الجنود يفتشون البيت غرفة غرفة ، بينما فَتَّشَ ضابط المخابرات المكتبة ، حاسوا البيت ، أشعلوا الأضواء ، دخلوا غرفة النوم ، و غرفة الصغار الذين كانوا يغطون في نوم عميق ، مستشعرين دفء الأب و حنان الأم ، موقنين أنهم سيستيقظون على أصوات أمهم تقول لهم : (قوموا افطروا) ، و على صوت أبيهم و هو يستحثهم كيلا يتأخّروا عن المدرسة التي دأبوا على أن يذهبوا إليها و يرجعوا منها بسيارة أبيهم الصغيرة ، أضاءوا غرفتهم ليوقظوهم و يزعجوهم قبل أن يوقظهم نور الصباح فلا يجدوا أباً يداعبهم ، و يستحثهم لينقلهم إلى مدرستهم ، تُرى من سينقلهم في الصباح إلى مدرستهم ؟؟؟ ..
حمدت اللّه تعالى إذ لم يستيقظ صغاري على إزعاج المزعجين ، و تمرّد المتمردين ، حمدت اللّه إذ لم يستيقظوا ليشاهدوا أباهم مقيّد اليدين ، معصوب العينين ، يدفع في ظهره ، حمدت اللّه إذ لم يستيقظوا و يروا الإرهاب و الإرهابيين .
و أخيراً خرج ضابط المخابرات و جنوده ، و أنا بين رشاشاتهم و حرابهم ، يدفع جنديّ في ظهري ، و قبل أن أخرج نظرت في عيني زوجتي مودّعاً ، لم تنطق بحرفٍ و تركت لعيونها النطق ، و لم أنطق بأزيَد من قولي لها و أنا أصافحها : (السلام عليكم)
و كان حالي و حالها كما قال الشاعر :

قالت و عيناها تفيضان عبرة
بنفسي بيّن لي متى أنت راجع
فقلت لها : و اللّه ما من مسافر
يحيط بعلم اللّه ما اللّه صانع

أنا رجل لي في الوفاء عقيدة
و لي في الهوى من خشية اللّه وازع
ألا لا يعلَمن سرّي و سرّك ثالث
فكل حديثٍ جاوز الإثنين شائع

خرجت لأجد شقيقي يقف أعلى الدرج أمام بيته ، و قد كان الجنود منعوه دخول بيتي معهم ، نظر إليّ نظرات ساهمة ملؤها الحزن و الأسى ، لم يعرِب لسانه بكلمة و أعربت نظراته بكلّ معاني المودة و الأخوة و الحب و الدعوات الصادقة الصالحة .
و شعرت بأن بعض الجيران كان يسترق النظر من خلف النوافذ المغلقة ، و الستائر المسدولة ، و الأبواب الموصدة إلا قليلاً ، و لعله تساءل في نفسه ليلاً ، و أفضى بمكنون نفسه لأخي نهاراً ، تُرى ما التهمة التي سيلفقونها لأبي فلان هذه المرة ؟
و أجزم بأنّه سيعرف الجواب ، فهو الجواب المعتاد في كلّ مرّة و هي التهمة المتكررة في كل اعتقال : (إنه أصولي ، متطرف ، إنه نشيط من نشطاء حركة المقاومة الإسلامية حماس" .
أدخلت إحدى السيارات الثلاث التي كانت تنتظر على بعد مائة متر من بيتي ، و ذلك كي لا أشعر بمجيئهم ، كنت مقيّد اليدين إلى الخلف بقيدٍ بلاستيكي لعين ، عرف و اشتهر بين المعتقلين بشدته و حدّته التي تزيد على شدّة و حدّة القيد الحديد ، فمن سماته جرح اليد و إدماء الرجل التي تزج فيه ، حادة الأطراف ، متين الصنع يزداد ضيقاً – بصورة تلقائية – كلما تحرّكت اليد أو الرجل فيه .
انطلقت السيارة تنهَب الأرض تتقدّمها سيارة – الفورد سيرا – التي يقودها ضابط المخابرات ، لتقف بعد مسافة قصيرة ، و ينزل منها الجنود ، فأدركت على الفور أنّ المعتقل هذه المرّة هو جاري فلان ، و الذي لم يمضِ على خروجه من السجن سوى خمسة أشهر ، إثر اعتقال دام سنة و نصف السنة ، أعطى خلال الشهور الخمسة المنصرمة هوية خضراء ، منع بسببها من دخول القدس و الصلاة في المسجد الأقصى .
قلت في نفسي و أنا جالس على المقعد الحديدي في سيارة الجيب الضخمة ، وأعضائي ترتجف من شدّة البرد ، و قطرات المطر تتسلّل إليّ بعضها فيلامس جسدي و ثيابي فيزيدني ارتعاداً على ارتعاد .. مسكين جاري ، لم يفرح به أهله بعد ، لم تفرح به زوجته التي غاب عنها دهراً ، لم تتعرّف إليه ابنته التي لم تلفظ كلمة بابا إلا بعد سنتين و نصف ، مسكين جاري ، لم يكد يهنأ بالعيش بين أهله و أحبابه و جيرانه ، ماذا فعل ؟ هل زاول نشاطه من جديد ؟ هل قاوم الاحتلال مرّة أخرى ؟ هل ؟ هل ؟ هل ؟؟؟ لا ، لا ، ليس من سببٍ للاعتقال سوى أنها اللّمة الكبرى التي تطول الجميع في مثل هذا اليوم من كلّ عام ، و كان اختطاف الجندي الصهيوني الرقيب (نسيم طوليدانو) من قبل كتائب الشيخ عز الدين القسّام ، الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) كفيلاً باعتقال آلاف الإسلاميين لتهدئة الشارع الصهيوني .
عاد الجنود بعد ربع ساعة من الزمان ، أغلقوا خلالها المنطقة ، و أوقفوا السيارات و فتّشوها ، و زرعوا الرعب بين سكان الحي ، و انطلقت السيارات من جديد بعد ما أضافت إلى كاتب هذه السطور رفيقاً جديداً ، وُضِعَ في سيارة أخرى تعمية للأمر ، و لم تتوقّف هذه المرّة إلا في الساحة الكبرى حيث أُنزلنا و دفعنا جنديّ لئيم في ظهورنا انتهى بنا إلى مخفر الشرطة ، فأوقفنا و وجوهنا تجاه الحائط تحت المطر و الثلج الذي بدأ يتساقط ، و عصب أعيننا كي لا نرى شيئاً ، و كنت ألبس كوفية حمراء فجمعها اللئيم على رأسي و عينيَّ و كاد يكتم بها أنفاسي .
وقفت و صديقي ننتظر رحمة اللّه التي وسعت كلّ شيء ، و ألسنتنا تلهج بدعاء الكرب :
لا إله إلاّ اللّه العظيم الحليم
لا إله إلاّ اللّه رب العرش العظيم
لا إله إلاّ اللّه رب السموات ، و رب الأرض ، و رب العرش الكريم

و بأدعية أخرى كنا نستشعر معها نسمات الإيمان و حلاوته ، و لذّة القرآن و بركته ، و الثقة و اليقين بالله ، و التوكل عليه ، و الاعتصام به . كان ترداد : "حسبي اللّه لا إله إلاّ هو عليه توكّلت و هو رب العرش العظيم" ، يلقي في الروع الاستقرار و السكينة ..

و كان قولنا : "لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" يبشّر بالفرج بعد الشدّة ، و باليسر بعد العسر .

أما قولنا : "لا حول و لا قوة إلاّ باللّه ، و الله أكبر" فكان استشعاراً يزرع القوة و يلغي الضعف ، و يبعث العزّة و يدفع الذلّة ، و كانت الروح لا تجد راحتها في هذا الجو العصيب إلا في ظلال دوحة الاستغفار و الذكر و الدعاء ، خاصة أننا منِعنا الكلام ، و كيف نتكلم و نحن نُضرَب دون كلام ..

الترحيل

بقينا على حالنا هذا حتى طرق مسامعنا صوت حافلة (باص) ، و للوهلة الأولى استغربنا وجود حافلة في منتصف الليل ، فقد أصبح من المألوف و المعتاد أن تتوقّف حركة السير مع غروب الشمس ، لم ندرِك حقيقة الحافلة التي توقّفت على بعد أمتارٍ منا حتى جاء الجندي اللئيم ليأمرنا بالسير أمامه ، حينها تأكّدت أنه يريد إخراجنا من ساحة المخفر ، و لكن إلى أين ؟ اللّه أعلم .

سرت و أنا أخشى الارتطام بالسياج الحديدي المحيط بالمخفر ، و وقع المحذور ، فقد تركنا اللئيم نسير حتى ارتطمنا بذاك السياج الحديدي ، ثم أمسك بنا بعنفٍ حتى أصعدنا الحافلة ، لم أعلم أنّ ما صعدت إليه حافلة إلا في مرحلة تالية بعد أن أزيلت العصب عن العيون ، و لم أعلم إلاّ متأخرا أن الحافلة قديمة قدم عاد و ثمود ، مخلعة النوافذ ، مثقوبة السقف ، حديدية المقاعد ، تسوؤك رؤيتها فكيف بالجلوس فيها .

جلست حيث أجلسوني على المقعد الذي يضيق بالواحد فضلاً عن الإثنين ، و كانت سيارة الجيش في حركة دائمة دائبة ، تذهب فارغة و ترجع محمّلة ، و كلما توقّفت صعدت إلينا منها جموع الشباب المسلم ، المقيّد الأيدي ، المعصوبي العيون ، أصواتهم مألوفة ، أسماؤهم معروفة ، لم أستطع مخاطبة أحدهم ، أو التسليم عليه ، لأن الأوامر كانت صارمة بخفض الرؤوس ، و التزام السكوت ، و من خالف ناله نصيب وافر من الضرب و السب و الاستهزاء .

كانت النافذة التي أُجلِست بجوارها مفتوحة ، و لم يكن بمقدوري إغلاقها ، و كان الهواء البارد ، و البرد القارص ، يتدفّق إليّ منها فتدفعه أنفاسي الحرّى المكتومة بالكوفية الحمراء ، و أذكر أنني شكوت من الألم في معدتي فصرخت على الجندي (شوتير) فلم يلتفت إليّ و لم يأبه بي ، و لم ينسني آلام معدتي و البرودة التي تسري في أعضائي من تيار الهواء المتدفق و ثيابي المبللة سوى أنّات الشباب ، و همسات المأسورين الذين بدءوا التساؤل عن بعضهم و عمّن يجلس بجوارهم ، و راح بعضهم يستصرخ الجنود كي يفكّوا قيده ، و لن أنسى ما حييت ذاك الحديث الذي سمعته أذناي و لم تبصره عيناي ، حينما استصرخ أحد الشباب الجندي فلم يلتفت إليه ، و استمر الشاب في الصراخ علّ الجندي يستجيب له فيكّ قيده الذي أدمى يديه ، أو يقيّدهما من الأمام ، و أخيرا نظر الجندي في القيد و قرر تضييقه و شدّه أكثر مما جعل الشاب يصرخ (اللّه أكبر) مستنكراً هذا التصرّف الوحشي ، و لم أكن أتخيّل كم يزعجهم هذا النداء و يخيفهم و يرهبهم ، فما إن سمع الجندي نداء (الله أكبر) حتى جن جنونه ، و انهال على

الشاب المسلم يضربه و يحرّض الجنود عليه ، و هو الإمام الذي اعتاد لسانه (الله أكبر) في حالتي الإعجاب و الاستغراب ، و لم يتوقّف الجنود عن ضربه و لكمه حتى رضيت نفوسهم بما أنزلوه به من ألم و إيذاء شديدين .

في تمام الساعة الثانية و النصف من بعد منتصف تلك الليلة كانت الحافلة قد أُتخمت ، و تكدّس عشرات المعتقلين في جوفها و لم يعد هناك متّسع ، إذ بلغ عدد الذين غصّت بهم مقاعد الحافلة ثلاثة و ثلاثين شاباً مسلماً ، فيهم الشيخ ، و العامل ، و الحدّاد ، و الزّجاج ، و الدّهان ، و البنّاء ، و الميكانيكي ، خليط عجيب ، و جمع غريب كطبقات المجتمع ، جمعها كلّها إيمانها بربّها ، و تصديقها لنبيّها ، و حبّها لشعبها و أمتها و أرضها و مقدّساتها ، و جريرتها الوحيدة الإسلام .

انطلقت الحافلة المتخمة لدقائق ، استقرت بعدها في ساحة بناية الحكم العسكري ، بينما كنا قابعين في مقاعدنا لا نملك أن نتكلم أو نتحرك ، أو نفكّ القيودَ التي صفّدنا بها ، و العصبَ التي غشيت أبصارنا بها ، و ازداد الوضع سوءاً مع ازدياد البرد و تساقط الثلج ، و انخفاض درجات الحرارة تحت الصفر ، و احتياجنا لقضاء الحاجة ، و صار الأمر الأخير ضرورة ملحة لا يمكن تأخيرها ، فإما أن نزل إلى الأرض لقضاء حاجتنا و إما التبول في الثياب و على البدن ، و ارتفعت الأصوات تطالب الجنود بالسماح لنا بالنزول ، و جاء الجواب كالعادة : ممنوع ، ممنوع . غير أن الضرورة كادت أن تجعل من الطلب إستنفاراً ، إذ أوشك البعض أن يتبوّل في ثيابه ، و غدا الأمر لا يمكن تأخيره ، و شعر الضابط و جنوده أن الوضع تفاقم و الخطر ادلهمَّ ، و أيقنوا أنه لا بد من السماح للشباب بالنزول و بدأوا بإنزالنا واحداً واحداً للتبول و قضاء الحاجة في الساحة المكشوفة تحت المطر و الثلج المتساقط .

نزلت كما نزل غيري ، معصوب العينين ، مقيد اليدين ، لم يكن باستطاعتي فك الأزرار أو إنزال الثياب بسبب البرد و القيد ، فتقدّم نحوي أحد الإخوة الكرام الذي جعل من نفسه خادماً لإخوانه المعتقلين ، فأنزل الثياب ، و فك الأزرار ، و يسّر الأمر لقضاء الحاجة ، ثم راح بعد ذلك يرفع الثياب كما كانت ، و هكذا فعل مع جميع الشباب الذين ألجأهم الضرورة إلى قضاء الحاجة على هذا النحو المفضوح الذي لا يمكن أن يكون إلا في ظلّ نظام يؤمن بالإرهاب و العنف و السّاديّة .

أقمنا في ساحة بناية الحكم العسكري حتى الساعة التاسعة من صباح يوم الثلاثاء 1996/12/15 ، كانت أصوات حافلات بين الفينة و الأخرى تقرع أذني ، إلا أنه لم يدر بخلدي و لو للحْظَة أنها أصوات لحافلات تكدّس فيها عشرات المعتقلين الذين يربو مجموعهم على المئة من مدينة واحدة من مدن فلسطين الحبيبة ، و خلال تلك المدّة كانت الملفات تعد ، و أوراق الإبعاد – الذي لم نكن نعلم به وقتها – تجهّز ، و كان ضباط المخابرات يتناوبون المرور علينا ، سائلين عن أسمائنا ، متأكّدين من وجودنا ، ساخرين منا ، مستهزئين بنا .

حمِّلنا بعدها إلى معتقل الظاهرية الذي كنّا ندخله معتقلين ، كلّما عنّ لأجهزة المخابرات الصهيونية أن تجمع مئات الشباب المسلم كي ترضي أحقادها ، و تسكت شعبها ، كنا ما نزال على هيأتنا الأولى ، و في الطريق كانت تنتاب الواحد منا جملة من الخواطر و المشاعر و التساؤلات : أين يأخذنا القوم المجرمون ؟ كم سيستمر الاعتقال ؟ كم مدّته ؟ هل هو لبضعة أيام (احترازي) ؟ أم أن الاعتقال إداري ؟ أم هو التحقيق .... و ..... و ... ؟ ، و في نهاية المطاف كان الواحد منّا يسلم أمره إلى اللّه ، و يسأله السلامة و العافية فهي خير ما يسألُ العبدُ ربَّه .

كان يجلس بجواري أخ فاضل أحبّه و أحترمه ، هامسني و هامسته و سرّى عني و سرّيت عنه ، و ارتاح لي و ارتحت له ، حتى أننا لم نشعر بالقيود التي أدمت أيادينا ، و كم ترجم لي من أقوال الجنود ، إذ كان يجيد العبرية ، و كم طالبهم بالسماح للشباب بالنزول لقضاء الحاجة .

كما كان يجلس في آخر الحافلة رجل جاوز الأربعين ، يتقن العبرية إتقاناً لا يحسنه كثير من اليهود أنفسهم ، خاصة أولئك الذين جيء بهم من الاتحاد السوفييتي (سابقاً) و الحبشة ، و غيرهما من دول العالم ، لم يكن ينتمي إلى الإسلام إلا كما ينتمي كثير من المسلمين في زماننا من خلال شهادة الميلاد ، و الأوراق الثبوتية و ركعات يؤدّيها حيناً و يتركها أحايين كثيرة ، سألهم و ألح في سؤالهم : (لماذا أتيتم بي ؟ ما هي تهمتي ؟ أنا مش حماس !!) .

سمعوه لكن لم يجيبوه ، و لم يلتفتوا إليه إلا ليشتموه ، أو يضربوه ، و أخيراً ، و بعد أن وصلنا إلى معتقل الظاهرية ، أدرك الجنود و رجال المخابرات أنهم قد اعتقلوه خطأ ، فردّوه إلى معتقل المدينة ، ثم أطلقوا سراحه من هناك بعد ليلتين قضاهما في البرد و الثلج و المطر .

في المعتقل

وصلت حافلتنا إلى معتقل الظاهرية بعد مسيرة ساعة و نصف الساعة ، ظنّ بعضنا خلالها أن الوجهة إلى النقب ، إلى معتقل أنصار 3 (كتسعوت) ، و كنت أستبعد ذلك لعلمي أن معتقل الظاهرية هو المعبر الجنوبي إلى معتقل النقب ، مكثنا في الحافلة الواقفة بانتظار دورها أكثر من ساعتين ، كان القائمون على إدارة معتقل الظاهرية يبحثون خلالها عن متسع لنا في هذا المعتقل الضيق بأهله ، لم نكن نحن فقط من ينتظر أن يؤذن له بالدخول ، فقد كانت عدة حافلات تنتظر ما ننتظر ، غير أن ضيق المعتقل ألزم الإدارة أن ترجع بعض الحافلات من حيث أتت . أذِن لنا أخيراً بالنزول من الحافلة إلى خيمة الانتظار الممزقة القماش ، المحطمة الأركان ، حتى أن بعض أعمدتها سقط من عصف الرياح ، فأدمى رأس أحد الشباب ، فنقل إلى عيادة المعتقل ليعود بعد قليل و لم يعالج ، نزلنا إلى الخيمة و نحن لم نزل على حالتنا الأولى ، فاقترب منا جنديّ بيده قطّاعة ، قطّع بها قيودنا البلاستيكية التي ما فتئت تدمي أيادينا طوال ست عشرة ساعة و أجّلنا النظر في الخيمة ، فوقع نظر بعضنا على قِدْر ضخم ، تقدّم نحوه ، و نزع غطاءه ليجده قليلاً من الشاي البارد الذي ما كان لنا أن نتركه لشدّة جوعنا و عطشنا ، و طمعاً في تغيير رائحة أفواهنا ، التي لم تذق طعاماً و لا شراباً منذ اعتقلنا و حتى تلك اللحظة .

تناولت رشفات من الشاي ، و جلست أنتظر ما تحمله الساعات القادمة ، أمّلت أن يكون الاعتقال إحترازياً ، فما أشدّ البعد عن الأهل و الولد ، صغيرتي تلك التي كدت ألاّ أشهد ميلادها بسبب اعتقالات 1990/12/14 ، و ها أنا ذا اليوم أغيب عن ناظريها مرة أخرى قبل أن تنهي النصف الأول من عامها الثاني ، و أجزم اليوم و أنا أخط هذه الكلمات أنني لو لقيتها فلن تعرفني ، و ستحفل مني إلى أمها حفلة الفصيل إلى أمّه ، فما الحل إذا كان الفراق لعامين .. ترى من الإرهابي : المقتلع من بيته و من بين زوجته و أطفاله ، أم من فرّق بين الصغيرة و أبيها ؟ بنفسي يا ابنتي ، بنفسي يا صغيرتي التي وددت أن أنتزعها من سريرها و هي نائمة قريرة العين لأضمّها إلى صدري الملتهب بمحبتها ، فآثرت حمل لهيبي في صدري و أشواقي في قلبي على إيقاظها.

قاتل اللّه من أحزن قلبك و أجرى دمعك ، و أبعد أباك . قاتل اللّه من جعلك تبكين فتنادين بابا ، فلا تجدين ملبياً و لا مجيباً ، و لا تجدين من كان يبكي لبكائك و يسارع لحملك ... ها أنت ذي اليوم تبكين ، و تُبكين من حولك .

آه ، ما أظلم الإنسان إن خلا قلبه من الإيمان ، و الرحمة و الحنان . لكِ اللّه يا ابنتي ، لكِ اللّه يا ابنتي . يا حبيبة قلبي ، و أنيسة روحي .

في تمام الساعة الثانية و النصف جاءنا ضابط الأمن في المعتقل و هو يحمل بيده بطاقات خضراء صغيرة ، مألوفة لنا ، معروفة عندنا ، إذ عهدناها في اعتقالٍ سابق تشتمل كلّ بطاقة منها على اسم السجين و رقمه ، وزّع علينا البطاقات ، كلٌ حسب اسمه و رقمه ، ثم طلب منا أن نتبعه في مجموعات كل مجموعة تضم ستة معتقلين ، بين كلّ مجموعة و أخرى نصف ساعة من الزمن .

تبعناه مخترقين البوابة الكبيرة الزرقاء التي لا تفتح إلاّ من الداخل ، ما كنا ندري أيسوقنا إلى الزنازين و غرف التحقيق ، أم إلى غرف الحجز و الاعتقال ، لكننا كنّا نعرف تمام المعرفة أنّ أول غرفة سندخلها هي غرفة العيادة الطبية ، فلقد كان من الضروري في عرف المعتقل و من باب حرص الإدارة على سلامة المعتقلين !! أن يُعرَض كلّ داخل إلى المعتقل على الطبيب ليفحصه بالعين فقط دون إمرار يدٍ أو استعمال جهاز .

أوقفنا الجنديّ الموكل بنا بباب العيادة الطبية المجاورة لغرفة الأمانات ، ثم أمرنا بتزع ثيابنا العلوية كلّها ، فتزعها قسمٌ منّا و تأخر آخرون فراراً من تيار الهواء البارد المتدفق من خلال الممر الحجريّ الضيّق ، فجاءهم الأمر مرة أخرى مصحوباً بوخزة من عصا الجندي الغليظة .

كنت آخر الستة الذين أدخلوا على الطبيب . و معنى هذا أنني بقيت في ذاك الممر اللعين قرابة نصف ساعة ، ارتعدت خلالها فرائصي من شدّة البرد ، فحاولت إيقاف ارتجاف جسدي بيديّ المرتجفتين ، و حاولت التحرك يمنة و يسرة فدفعني الجندي الحاقد نحو الحائط ، و أشار بعصاه إلى نقطة معيّنة على الجدار و أمرني ألا أرفع بصري عنها .

و جاء دوري ، فدخلت لأجد الطبيب منشغلاً ، بمحادثة صديق له ، فلم يلتفت إليّ و مضى يحادث صاحبه ، بينما قام الممرض (حوفيش) بسؤالي عمّا بي من أمراضٍ فأعلمته بما أعاني فدوّن بعضها و ترك بعضها الآخر ، و كان من اللازم عليّ و على غيري ممن سبقني و على كلّ من يكتَب عليه دخول هذا المعتقل كشف الجزء السفلي من البدن سوى العورة ثم الالتفاف حول النفس كي يتسنّى للممرض الجالس على مقعده أن يكتشف ما بالبدن من إصابات أو جراحات ، فليس الهدف صحة المعتقل و إنما التحقق من هويته ، و هل هو من المشاركين في الانتفاضة أم لا .

و كم من الشباب المنتفض افتضح أمره ، و انكشف سرّه و ستره على يد الطبيب أو الممرض الذي اطلع منه على جرحٍ أو إصابة سترها ثيابه !!! .. لقد كان هذا الفحص الطبي بكلّ سيئاته و مساوئه أفضل بكثيرٍ من تلك الفحوصات التي يجبر عليها المعتقلون و يتعرّضون لها في تلك السجون و المعتقلات الصهيونية المنتشرة في عرض البلاد و طولها ، إذ كان يجبر المعتقلون الواردون إليها على خلع جميع ملابسهم ، و كشف عوراتهم ليمسك بها الطبيب الشاذ أو الممرض السادي ، ثم ليطلق ما شاء من تعليمات و تفاهات شيطانية و قهقهات إبليسية . ارتديت ثيابي ، و سلّمت لقسم الأمانات ساعة كانت بيدي ، فقوانين المعتقلات تحرِم الإنسان من ساعته ، و حزامه ، و شسع نعله ، أما كوفيتي الحمراء و عقالي الأسود فقد حُرْمتُهما ، بل إن الجندي المسئول في قسم الأمانات رفض تسجيلها أو وضعها مع الساعة في المغلف الكبير .

فرغنا من الفحص الطبي و تسليم الأمانات ، و انطلق بنا الجندي يسوقنا أمامه حتى إذا اقترب من باب إحدى الغرف تقدّمنا ليفتح بابها ثم ليأمرنا بدخولها ، دخلناها لنجد أن من سبقنا ممن كان معنا قد دخلها قبلنا ، فحمدت اللّه – في حزن – إذ جعل لي رفقة ممن أعرفهم في هذه الغربة و هذا السجن ، و آنسَت نفسي بوجودهم ، و انشرح صدري برؤيتهم .

وقفت داخل الغرفة أقلب النظر في أرجائها ، و أجيله في نواحيها ، و أنا العليم بها و بمساحتها ، و بما كانت تستعمل له ، إذ كانت قد خصّصت لستة من الخيول الإنجليزية أيام كان الانتداب الإنجليزي يسيطر على فلسطين و يستبيحها .

سبعة و ثلاثون معتقلاً في هذا المساحة الضيقة التي لا تتجاوز أربعين متراً مربعاً ، و كلّ غرفة من غرف المعتقل فيها مثل هذا العدد ، لم يكن نصيب الواحد منا يزيد من 80 سنتمتراً مربعاً ، لأن الغرفة كان قد اقتطع منها قسم جعل في الزاوية اليسرى منه الحمام المكوّن من بطانيتين متعأرضتين بينهما برميل بلاستيكي يعرف بـــ (الجردل) ، و بجوار الحمّام برميل آخر يستعمل للقمامة ، و في الزاوية اليمنى كانت توجد مستلزمات المطبخ المتمثلة في : مجموعة من الأكواب ، و الأطباق البلاستيكية ، و بين الزوايتين سبعة و ثلاثون زوجاً من الأحذية .

أمّا الجردل فقصته قصة ، و قصص الشباب معه من النوع المضحك المبكي ، لأن شر البلية ما يضحك ، فمن المحتَّم على كلّ سجين يريد قضاء حاجته الصعود فوق الجردل إذ لا يوجد مكان آخر يمكن أن يقضي المرء فيه حاجته سوى الجردل ، و لطالما رفض كثير من الشباب الصعود و تقزّز من هذا الوضع المزري ، فاضطرته الحاجة في نهاية الأمر إلى اعتلاء صهوة الجردل ، الذي وقع بمن فوقه عدة مرات ، و حسبك من هذا المنظر تشمئز منه النفوس ، و تنفر منه الطباع السليمة ، كم من المرات غرقت الغرفة بالأوساخ و النتن و البول ، كم من المرات تبللت البطانيات و الفرش بالقاذورات ، كم من المرات طفح الجردل بما فيه ، و سال البول على الأرض ، لأن الجندي يرفض أن يبدّل الجردل المليء بآخر فارغ قبل الساعة التاسعة من صباح كلّ يوم ، و لفرط

صعوبة اعتلائه سمى الشباب صعوده (اقتحاماً) ، و غدا من يريد دخول الحمّام يعلن على الملأ من المعتقلين أنه يريد اقتحام الجردل ، فإذا نجح في اعتلائه و سلم من السقوط فيه ، أطل علينا من فوق الستار القماشي معلناً انتصاره و فوزه ، و لست أنسى طبيباً صحبنا في رحلتنا الاعتقالية هذه ، جلسنا ساعات نقنعه باقتحام الجردل حتى اقتنع . وقفت أجيل النظر و أقلّبه علّني أجد لي متسعاً أو فرجة أقضي فيها ما قدّر لي من أيام و ليال ، و أخيراً سرت صوب زاوية من الغرفة كنت اتخذتها في اعتقالٍ سابق مسكناً لي ، خطوت نحوها و كأن شيئاً يجذبني إليها ، لعلّها الألفة السابقة . أو لعلها الذكريات القديمة .

لست أدري ما الذي دفعني إلى تجاوز الأجساد الممتدة حتى أصل إليها ، غير أني قصدتها مع علمي أن بعض الشباب قد سبقني إليها . قصدتها و جلست بين اثنين من الشباب ، لم أجلس بينهما بالقوة ، و إنما بروح الأخوّة .

كان عددنا الضخم في الغرفة الضيقة المختنقة يفرض علينا أن نجلس في صفين متقابلين متراصّيْن ، و كانت الأنفاس المتلاحقة و الدخان المتصاعد ، و الروائح المنبعثة من الجردل ، و البرودة المنتشرة ، كفيلة بإحالة هواء الغرفة إلى فاسد ، فالهواء النقي منع من الدخول و الهواء الفاسد منع من الخروج إلا من خلال الثقوب الصغيرة في الساتر الحديدي الموضوع عمداً على النوافذ و الأبواب ، و الحائل دون دخول أشعة الشمس ، التي كنا نمنع من رؤيتها الأيام العديدة ، و إن سمح لنا فلساعة واحدة في الأسبوع ، و هي ما يطلق عليها في عرف المعتقلات (فورة) .. في هذا الجو كانت تعيش الرطوبة ، و تتفشى الأمراض ، فما من عائقٍ يمنعها أو يحجزها ، لقد كانت هذه الحالة و هذا الوضع من نتاج العقل البشري الحاقد ، الذي لا يروق له أن يرى في عالم الإنسانية سواه ، و لا في الكون غيره ، أما بقية الناس فلا يعدون أن يكونوا حشرات حقيرة ، و بكتيريا يجب القضاء عليها ، و طفيليات تستحق الموت ..

بدأت الأخبار تتسرّب عبر الثقوب التي فتحتها المجموعات المتلاحقة من المعتقلين بأعقاب الملاعق بين الغرف ، إذ هي طريقة الاتصال الوحيدة ، و بدأنا نسمع : لقد جاءوا بفلان ... ، اعتقل الشيخ علان .... ، في الغرفة كذا كلّ مشايخ مدينة كذا ..... ، في غرف العقاب الدكتور فلان المدرس في جامعة ..... ، في زنازين التحقيق عشرات المعتقلين ، أسماء مشهورة في عالم العلم و الفضيلة و الدين ، لقد كان الأمر يبعث السكينة و الطمأنينة في النفس حيث إنه و كما قال أهل الأمثال (موتك بين الجماعة رحمة) ، و هو محزِن لأن العدو الصهيوني بهذه الخطوة الهستيريّة الإجرامية فرّغ البلاد من أهلها ، و الجامعات و المساجد ، و المراكز التعليمية من طليعة الأمة و خيرها .

لقد كانت الأعداد كثيرة كثرةً تربوعن المعقول ، فالأرقام بالمئات ، و كانت الدهشة ترتسم على الوجوه المؤمنة كلما ذكر اسم ليس له في عالم المشيخة نصيب ، و لا في السجل الاعتقالي صفحات ، لكن المزيّة البادية على هذا الاعتقال أنه شمل جمعاً كثيراً من الإسلاميين ، و أنّه من طبقة المثقفين و المعلمين غالب كثير .

تأخرت وجبة الغداء في ذاك اليوم لتصبح وجبة عشاء ، و كنا منذ الساعة الأولى لاعتقالنا لم نذق شيئاً سوى رشفات الشاي التي أسلفت الحديث عنها ، و لما استفسرنا جاءنا الجواب : بأن إدارة المعتقل مشغولة منذ الساعة الثانية صباحاً في استقبال المعتقلين الجدد ، الذين زاد عددهم عن مائتين ، ليرتفع عدد السجناء خلال اثنتي عشرة ساعة من مائتين و خمسين إلى أربع مائة و خمسين .

و أخيراً جاء العشاء المعهود ، فالطعام في عرف السجون الصهيونية متكرّر مألوف معروف ، تملّه من كثرة ما يعرض عليك حتى أنك في كثير من الأحيان تمتنع عن تناوله ، لا من شبع و إنّما من زهدٍ يبعثه في نفسك التكرار الممل ، و تستطيع أن تخبر كلّ حديث عهد بسجن عمّا سيأكله لا عن علم كعلم سيدنا عيسى عليه السلام (و أنبئكم بما تأكلون و ما تدّخرون في بيوتكم) أو كعلم سيدنا يوسف عليه السلام لما قال لصاحبي السجن (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي) ، و لكن عن خبرة ، و تجربة ، و دراية بتعاليم إدارة المعتقل .

كان يتكوّن العشاء من بعض قطع البطاطا و البندورة ، و قليل من اللحم المعلب الذي انقضت مدّة صلاحيته أو أوشكت على الانقضاء ، و التي احتال عليها الشباب العاملون في المطبخ – و هم أصلاً من المعتقلين – على جعلها طبخة ، لقد صنعوا منها

بالإكراه طبخة تسمى (الصينيّة) أكلناها ، و كنا قبل أن يؤتى بها قد عثرنا في الركن المطبخي على القليل من البصل و الخبز فلم نبقِ منه شيئاً و لم نذر ، و وجد بعضنا بعض الأنابيب المطاطية المحتوية على مربّى الفواكه الذي انتهت مدّة صلاحيته و لكن الشباب اكتفوا بفحصه عن طريق الشم و الذوق ، و قبل أن تظهر نتيجة الفحص كان المربّى قد اختفى من الأنابيب المطاطية و ذلك بسبب الجوع الشديد الذي كان قد أخذ من الشباب كلّ مأخذ .

نمنا ليلتنا تلك على جنوبنا لضيق الغرفة ، و كان البرد و الازدحام يقضّان المضاجع ، و يسببان حرجاً تدفعه الألفة و المودة و عبر كثيرة استُحضرت ، لم نكن نعرف ما تخبئه الأقدار و لا ما تطويه الليالي و الأيام عنا ، و لا ما تحمله الساعات القادمة ، لكنّ الشيء الوحيد الذي كنا نعرفه و نصبر عليه هو أننا سجناء بسبب انتمائنا للإسلام و تمسّكنا به .

استيقظنا على صوت المؤذّن يعلن انبلاج الفجر و انحسار الظلام ، فضربنا أيدينا بجدران الغرفة متيمّمين ، فالماء لا يكاد يكفي للشرب أو غسل أكواب الشاي ، إذ يحرم على السبعة و الثلاثين معتقلاً أن يستهلكوا أكثر من أربعة جالونات يومياً ، فإذا استهلكوها فعليهم أن يبقوا بلا ماء حتى يطيب للجندي (الشوتير) الوفيّ لتعليمات إدارة القمع الصهيونية المتقيّد بأوامرها أن يدخل جالوناً آخر ، متفضلاً على المعتقلين بحسن خلقه !! .

صلّينا الفجر جماعة ، و لم يتخلّف منا أحد ، و هي أول مرة من مرات اعتقالي المتعدّدة التي أشاهد فيها منظراً كهذا المنظر ، فالمرات السابقة كنت تجد فيها أعداداً من المعتقلين الذين لا يروقهم الأذان ، بل إنّ بعضهم كان يتجرأ فيعرب عن انزعاجه من صلاتنا و دعائنا بعد الصلاة ، لقد كان مشهداً رائعاً ينبيك أن حملة الاعتقالات هذه موجّهة لكلّ مسلم يرفع شعار الإسلام و يعتز به .

الإبعاد

كانت عقارب الساعة تمضي مسرعة و نحن نعيش لحظات الأخوة الصادقة التي زادها الاعتقال صدقاً و عمقاً ، و جاء المساء ، مساء يوم الأربعاء 1992/12/16 ، ذلك المساء الذي تسرّب إلينا فيه نبأ مقتل الجندي المختطف (نيسيم طوليدانو) على يد كتائب الشيخ عز الدين القسام التابعة لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) بعد رفض الحكومة الصهيونية مقايضته بالشيخ الجليل (القعيد) أحمد ياسين مؤسس حركة المقاومة الإسلامية (حماس) .

ذاك المساء الرعيب الرهيب الذي ما كان يدور بخلدي أنه سيكون الحد الفاصل بين فلسطين و لبنان ، بين الوطن الحبيب و الوطن البديل ، بين الأهل و الأحباب و الألفة و الأنس و بين الغربة و البعد و الوحشة و الفراق ، جاء المساء ، و جاء معه السجّان يناديني و يردّد رقمي ، و فتح الباب و قال : إلبس ، فجهّزت نفسي ، و لبست ثيابي ، في الوقت الذي قال فيه صحْبي و هم يودّعونني و يحسبون أنني راجع إلى أهلي : (مبارك ، ترويحة ، اللّه يسهل عليك) ، و راح بعضهم يوصيني ، فمن قائل : (اتصل بأهلي و طمئنهم عني) ، و آخر يقول : (لا تنسَ أن تزور أهلي) .. الخ .

ظنَّ الشباب أني عما قريب سأكون بين أهلي و أولادي ، حتى أن بعضهم دعا لنفسه قائلاً : (اللهم ألحقني به عن قريب) و لقد لحق بي فعلاً ، لا إلى البيت و لكن إلى مرج الزهور ، و كنت و أنا العليم بسياسة اليهود ، و طرقهم في المكر و الخداع و

الاستهزاء أستبعد الإفراج لعلمي أنهم يصرّحون بالشيء و هم ينوون خلافه ، لذا توجّست خيفة من هذا الاستدعاء ، فلم يمضِ على اعتقالي سوى يوم واحد ، فكيف سيفرج عني ؟! أيقنت أن الأمر أعظم و أخطر مما يدور في أذهان الشباب .

و جاء السجان ليفتح باب الغرفة الموصد بقفلين ، بعد ذلك فتح عدة غرف ، و أخرج من كلّ غرفة عدداً من المعتقلين ، ثم تقدّمنا ليقودنا واحداً تلو الآخر عبر باب الزنازين الرئيسي ، ليستقبلنا خمسة جنود بأيديهم العصب و القيود البلاستيكية ، عصبوا عينيّ ، و قيدوا يديَّ ، و دفعني أحدهم في ظهري حتى أوقفني أمام حافلة ، أصعدني إليها الجندي المكلّف بمن فيها ، ما كان فيها متسع ، بل كان عدد الشباب أكثر من عدد المقاعد ، غير أن الأعداء ما كانوا ليفقهوا حقوق الإنسان ، لهذا – و قهراً لنا و رغماً عنا – أمرنا الجندي بالجلوس على الأرض بين المقاعد ، و أمرنا أن نجلس القرفصاء دون الوصول إلى الأرض ، أو الاستقرار عليها .

جلست كما أمرني ، و أسندت ظهري إلى ساقَي غيري كما أسند من جلس أمامي ظهره إلى ساقَي ، لم تكن بالجلسة المريحة ، بل كانت تبعث الإشمئزاز ، و الضيق و التعب .

و لم تلبث معدتي أن آلمتني نتيجة هذا الوضع المزعج ، فصرخت على الجندي (ياشوتير) فلم يلتفت إليّ ، و لم أستطع أن أتمالك نفسي من شدّة آلام معدتي فأفرغت كلّ ما في جوفي على ثيابي و على الأرض ، و لا أدري إن كنت آذيت من كان يجلس أمامي ، لقد كنت في حالة تستدرّ العطف ، و تسترعي الانتباه ، غير أن قلوب الجنود كانت كأنما قدّت من صوان أو حديد (فهي كالحجارة أو أشد قسوة و إن من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار و إن منها لما يشقّق فيخرج منه الماء و إن منْها لما يهبط من خشية اللّه) .

لم يرحم ضعفي في تلك اللحظات إلا أصحاب القلوب النقيَّة التي ربّاها الإسلام على الرحمة و المودة و كلّ خلق كريم ، لم ينتبه إليّ الجنود المبصرة عيونهم ، المقفلة قلوبهم ، و اهتم بحالي من عصبت عيونهم ، و تفتحت قلوبهم ، فقد هتف بي أحد الجالسين على المقاعد قائلاً : من بجواري ؟

قلت : أنا فلان ..

قال : أهلاً يا أستاذ ، سلامتك ، تفضّل إجلس مكاني ..

كنْت بحاجة ماسة إلى الجلوس على المقعد ، و لكن أبت مروءتي و عزة نفسي أن أستجيب له ، و أنا أعلم أنّ من سيجلس مكاني يلقى من التعب ما ألاقي ، ما كنت لأجلس و أدع آخر يشقى بدلاً مني ، كنت أدرك طبيعة النظرة التي ينظر هؤلاء الشباب بها إلينا كأساتذة و كبار في السّن ، إنهم يرون فينا النموذج و الأسوة و القدوة ، كان ذلك الأخ يلحّ عليّ إلحاحاً شديداً ليجلس مكاني ، و كنت أصرّ على الرفض ، و في النهاية طلب هذا الشاب المهذب من صديق له أن يقوم ليجلسني مكانه ، و بقيت على إصراري و لم أقبل حتى رضيَ من جلس مكاني أن يكون الأمر بيني و بينه بالتسوية و التناوب ، فجزاه اللّه خيراً .

لم تمضِ إلا دقائق حتى جاء الجنود و بدأوا بإنزالنا من الحافلة واحداً إثر آخر ، يذهبون بالواحد منا لا ندري إلى أين ؟ و لا ما يفعل به ؟ أعداد من المعتقلين سيقت أمامي قبل أن يقف الجندي فوق رأسي و يمسك بكتفي ليدفعني أمامه ، و أنا أتخبّط و أتعثر لا أرى شيئاً ، و لا أقدر على إمساك شيء ، أنزلتُ إلى الأرض و أوقفت برهة كنت أصرخ خلالها من ألم القيد الشديد الذي أدمى معصمي ، لقد أصبح من المألوف الصراخ ، لأنك إن لم تصرخ تركت على حالك ، فإذا كانت قيودك غير مشدودة فسكوتك ينجيك في أغلب الأحيان ، و هو كارثة عليك إن ضيّقت القيود و توسعتها كي يتخلّصوا من الصراخ و الإزعاج ، هذا ما علمتناه التجربة الاعتقالية المتكررة .

تقدّم نحوي جندي شعرت بأنه مُصْدر الأوامر (كاتسيم) ، فكّ قيدي فاستبشرت خيراً ، غير أنه ما لبث أن عاد فجعل قيداً في يمناي ، و آخر في يسراي و جمع بينهما بقيد ثالث ، ثم أمر بي بعض جنوده فساقني أمامه حتى أركبني حافلة جديدة غير التي كنت فيها ، و أجلسني على مقعد متقدّم في الحافلة ، و أمرني بالتزام جانب النافذة من المقعد ، كما أمرني برفع قدميّ فوق المقعد

، قلت في نفسي – في لحظة غفلة عن أساليب الجنود اللعينة – جلسة رائعة ، و لم أذهب بعيداً في تفكيري حتى قطع الخبيث عليّ حديث نفسي بينما وضع في كلّ قدم قيداً ، و جمع بينهما بقيد ثالث ، و فعل بهما ما فعل بيدي من قبل ، ثم أصدر إليّ جملة من الأوامر كان منها إنزال قدميّ عن المقعد ، و التصاقي بجدار الحافلة ، و ثني ظهري ، و وضع رأسي على ظهر المقعد الأمامي ، و التزام الصمت ، و البقاء على هذه الحالة و إلا ... كانت العقوبة .

كان كلّ من يترل من الحافلة الأولى يُصوَّر قبل أن يصعد الحافلة الثانية ، لِمَ الصور ؟ و لم هذا العدد من الصور لكلّ واحد ؟ و لم هذا العدد من المصوّرين ؟ لم يحدث مثل هذا في الاعتقالات السابقة فلم هذه المرّة ؟ سؤال محيّر لم أعرف جوابه إلا فيما بعد ، و الجنود في حركة دائبة ، و في ذهاب و إياب مستمريْن ، لا يكادون يتوقّفون ، لم نكن ندري بما يجري ، فقد كان خبر الإبعاد قد أُخفي عنا ، و غُمّي علينا ، فلا نفقه شيئاً مما يحدث .

انطلقت الحافلة و الفكر يبحث عن جواب لما يعتمل في النفس من أسئلة : إلى أين المسير ؟ هل الوجهة النقب ؟ أم هو التحقيق ، و الشبح ، و الأذى ؟ أم عملية نقل إلى معتقلٍ آخر ، لأن معتقل الظاهرية ضيق بأهله ؟ أم ؟ أم ؟ أم ؟ .. و لكن ما الداعي للقيود الستة بحضور الجنود المدّججين بالسلاح ؟ تساؤلات كثيرة كانت تشغل الذهن و ترهقه ، يقف عاجزاً عندها عن حقيقة الأمر ، و لا يجد له ملاذاً إلا في (لا حول و لا قوة إلا باللّه ، حسبي اللّه و نعم الوكيل) .

كانت الحافلة تنطلق مسرعة لا تلوي على شيء ، و لما كنت عليماً بطريق النقب أدركت و منذ الدقائق الأولى أننا سائرون إلى غير النقب ، و تأكّد لي ذاك الحدس حينما توقّفنا أمام سجن الخليل المركزي ، لم تكن العصبة قد أزيلت عن عينيّ ، و إنما معرفتي بطبيعة بلادي و طرقها ، و انحدارها و ارتفاعها ، و جبالها ، و وهادها ، و مدنها ، و قراها ، كانت كافية لأعرف الموقع الذي توقّفت فيه الحافلة .

و عادت الحافلة لتنطلق من جديد و هي تحمل بداخلها اثنين و عشرين معتقلاً ، كلهم من شباب المساجد و روادها ، لا يدرون إلى أين يحمَلون و يرحّلون ، و لا أيّ سجن سيدخلون .. و وقع في نفسي أننا نساق إلى مجزرة التحقيق في (بتاح تكفا) ، تلك البلدة العربية التي كانت تدعى قبل أن تطأها أقدام اليهود (ملَبِّسْ) ، فما عاد فيها من الحلاوة شيء ، بل أحالها المحتلون إلى مركزٍ للتحقيق ، لكن ثلاث ساعات مضت و لم نصل بعد ، فأيقنت أن ظني خاب ، و أن حدسي ليس في محله ، و أن الوجهة غير ما توقعت ، إذ المسافة إلى (بتاح تكفا) لا تستغرق سوى ساعتين فقط ، و رجعت إلى نفسي فقلت : لعل الوجهة إلى (معتقل مجدو) ، و لكن سرعان ما اندحرت هذه الفكرة و غاب هذا الخاطر ، لعلمي أن حملة الاعتقالات شملت جميع الضفة و القطاع ، و من المعلوم و المعروف أن الذين يعتقلون من مدن شمال الضفة كجنين و طولكرم ، و نابلس ، و قلقيلية ينقلون إلى معتقل مجدّو ، فكان من الطبيعي أن يكون هذا المعتقل قد غصّ بمن فيه كما غصّ معتقل الظاهرية الذي أسلفنا الحديث عنه ، و لم يعد بالإمكان استقبال أحد من المناطق الأخرى خاصة البعيدة منها .

و مضت الساعات و نحن على تلك الحال التي وصفت من التقيّد ، و التضييق ، و التعمية ، إضافة إلى الضرب على الرؤوس و السّباب ، لكلّ مقدّس و طاهر و غال ، فالرب يشتم كما يشتم الدين ، و القرآن، و النبيّ ، و الآباء ، و الأمهات و الأخوات و الأعراض مع التهديد بهتك العرض و ممارسة اللواط ، إلى غير ذلك من التطاول على الشخصيات القيادية ، و الرموز الإسلامية كالشيخ أحمد ياسين (فرج اللّه كربه ، و فك أسره) .

بين الفينة و الأخرى كانت تنبعث صرخات لبعض الأخوة تطالب الجلادين بالسماح لهم بالترول لقضاء الحاجة ، و كان الجواب يأتي في كلّ مرة بالمنع ، حتى بلغ الأمر بأحد الشباب المرضى أن بال في ثيابه ثلاث مرات ، و كان ردّه فعل الجلاوزة و الظلمة الفورية الضرب المبرح ، و التعرّض لدينه و عرضه ، و ربّه بالشتم و الإستهزاء .

و أذكر أنهم في ساعة من ساعات سعادتهم أعطوا كلّ واحدٍ منا رقماً ، و طالبوا بحفظه و الرد عند سماعه بقولنا : نعم يا كابتن (كين كابتن) ، و من نودي على رقمه و لم يُجب لغفلة أصابته أو سِنَة ألمت به ، وجّه إليه الجندي اللعين عدّة ضربات على رأسه

، و سيلاً من الشتائم الفاجرة البذيئة و لست بناسٍ ذلك الشاب الذي رفض أن يضرَب و أن يشتم عرضه ، و أن يوصف بأنه ابن زنا ، و لفرط حنقه و نقمته عليهم ، و كرهِهِ لهم ردّ المقولة مثلها ، فهجم عليه ثلاثة جنود يضربونه ، و هو يدافعهم بصدره و رأسه ، و لم يكفّ حتى كفوّا هم .

كنا قد أُمرنا بخفض الرؤوس و عدم النوم ، و كان الجنود من حين لآخر يتفقّدوننا ، و يتأكّدون من وجود القيود ، و عصب العيون ، و من استيقاظنا ، و قد نالني نصيب وافر من الضرب على رأسي بحجة النوم الذي هو نعمة من اللّه يمنُّ بها على المظلومين ، إذ ينسون به ألم القيد ، و طول الطريق ، و عهر الجنود ، تلك السِّنات التي لم يزل الصالحون يتعرّفون بها معية اللّه لهم ، يستريحون فيها من العناء و الشقاء و الضيق ، و تسرَح أرواحهم في ملكوت اللّه تلك السّنات القليلة كانت تعيد للواحد منا نشاطه ، و قوته ، و جَلَدَه ، و لم يكن يقطعها إلا ضربات من قبضة الجندي الواقف فوق الرؤوس يرقبها ، و يرمقها ، و يزعجها بأساليب الإزعاج المختلفة المتعدّدة .

و كان يحلو لبعض الجنود أن يقف بجوار بعض الشباب يسائلهم عن أسمائهم ، و أعمارهم ، و أولادهم ، و سبب اعتقالهم ، و كان من يُسأل يلحظ من خلال الأسئلة التي توجه إليه أن جلّ اهتمام الجنود ينصب على العلاقة الجنسية ، الأمر الذي إن دلّ فإنما يدل على المستوى العقلي و التفكير البهيمي الذي وصل إليه الجندي من خلال التربية التي يتلقاها ، و الحياة التي يحياها ، حيث أصبح لا يعرف من الحياة إلا تلك العلاقة الآثمة بين الرجل و المرأة ، و كان أكثر ما يغيظ الجندي السائل عدم إجابة الشباب ، أو التزامهم الصمت مما يشكّل إستفزازاً سافراً لمشاعر الجندي الشيطانية ، فيروح يضرب الشباب ذات اليمين و ذات الشمال لا يفرّق بين أحد ، ثم ينصرف خائب الآمال ، كسير الخاطر ، إذ لم يحقّق ما كان يرجو .

و مضت الساعات ، و طالت المسافات ، و تلاشت من ذهني كلّ الأفكار السابقة ، و لاح لي شبح الإبعاد ، أهو الإبعاد ، أحقاً نحن مبعدون ؟ فكرة ما كانت لترِد على بالي لولا أني أيقنت أننا قد تجاوزنا في مسيرنا الطويل هذا حدود فلسطين ، و استيقنت الأمر و لم تعد مجرد فكرة حينما فتح الجنود المذياع لينبعث صوت المذيع معلنا باللغة العبرية أننا مبعدون عن بلادنا و أهلنا إلى جنوب لبنان .

دهشت مما سمعت ، و أدركت دهشة إخواني الواحد و العشرين من خلال الهمسات التي نطقت بها شفاههم ، و سمعت أخاً يجلس على المقعد الذي يليني يقول (إبعاد يا شباب) ، فتكاثر الهمس بين الشباب رغم الأوامر المشدّدة بعدم الكلام ، فمنهم من يريد التأكد مما سمع ، و منهم من يستجلي حقيقة الخبر ، و سرعان ما انتشر الخبر ، و أدرك الجميع أنهم مبعدون ، غير أنّا لم نكن نملك وسيلة تعبير نعبّر بها عن رفضنا للإبعاد ، و نحن على تلك الحال التي وصفت من قبل ، و هل يحقّ لك الاعتراض إذا كان الكلام قد منع ؟ و هل تملك المخالفة إذا كانت الرؤوس مأمور أصحابها بخفضها طوال مدّة السفر الطويلة ؟ و من سيسمع منك لو اعترضت أو خالفت ؟ و الجندي الواقف فوق رأسك ، و الضارب نافوخك بعصاه الغليظة ، أو بقبضة يده ، متى ما شاء تكلم العربية ، و متى ما أراد تكلم العبريّة ، و متى ما أحب سبّ و شتم ، و لعلّ وقاحة بعضهم قد بلغت به أن يضرط في وجه أحد الشباب ، و يبول عليه و على ثيابه ثم يقول له : لم تبولت في ثيابك ، و يضربه .

كشف الصبح عن وجهه الوضاح ، فتسللت إلينا خيوط من شعاعه عبر عصب العيون ، و أبت إلاّ تمزيق الظلام الذي فرضه علينا أعداؤنا و مبعِدونا ، فاستأنست الروح بتلك الخيوط النورانية ، و استروحت به النفس من عتمة الليل ، و ظلمة الظلم ، و سرى فيها أملُ زهوق الباطل ، بمجيء الحق ، و اندحار الكفر بقوة الإيمان كشروق الشمس بعد الظلمة ، و انحسار الليل بطلوع النهار .

توقّفت الحافلة أخيراً بعد طول مسير ، و وقع في خلدي أننا وقوف في منطقة (المطلّة) الواقعة على الشريط الحدودي بين لبنان و فلسطين ، تلك المستعمرة التي يسمّونها بالعبريّة (ميتولا) و التي سبق لي المرور بها في يومٍ من الأيام الخالية مع طلاب المدرسة التي أعمل فيها .

كانت تظهر لنا عن بعد جبال لبنان المرتفعة عن حوض طبريا ، ما خطر ببالي في يوم من الأيام أني سأمر بلبنان ، سأقف فوق أرضه مبعداً ، لكنها المقادير ، أرض لبنان التي طالما سمعت و قرأت عنها ، عن جبالها و وديانها ، و أنهارها و ثلوجها ، عما قريبٍ سألقى في أحضانها ، لا أعرف طريقي في مسالكها و دروبها ، و لا أعلم عن مستقبلي شيئاً ، غيبٌ يكتنف رحلتي ، و مجاهيل تنتظرني ، و الهادي و المسلّم مما أنا فيه اللّه وحده .

بقينا جلوساً في الحافلة ساعات ، نتجرّع فيها غصص الألم ، و مرارة الفراق ، فراق الوطن و البلد ، و الأهل و الولد ، و فراق المعاهد و المساجد ، و الروّاد و العبّاد ، لَكُنَّ اللّه يا أمهاتنا ، و أخواتنا ، و زوجاتنا ، و بناتنا لكم اللّه يا آباءنا ، و إخواننا ، و أبناءنا ، لك اللّه أيها الأخ الحبيب الذي حمّلته عبء عائلتي مع عائلته ، لك اللّه أيتها الزوجة الصابرة التي لا أكاد ألقاها حتى أفارقها ، لكم اللّه أيها الأحباب الصغار ، و الله ما يسلّينا عنكم سوى الرضا بقضاء اللّه و الأمل باللقاء ، فعسى أن يكون اللقاء قريباً .

كنا نتجرّع الألم الذي يؤيّده الجنود إيلاماً بعهرهم و غطرستهم و سوء خلقهم ، كانوا لا ينفكون عن السخرية بنا ، و بمشاعرنا ، و معتقداتنا ، و أفكارنا ، و أهلنا ، أنا أجزم أنّ الأوامر الصادرة إليهم كانت تقضي بمثل هذه التصرفات الشاذة ، إضافة إلى السادية التي يتصف بها الجنود بصورة عامّة ، و إلاّ فما معنى أن يستأذن الشاب للتبول فيقال له : بل في ثيابك ، فإذا اضطر لفعلها ناله من الأذى ما لو نزل بجبل لهدّه ، و طلبت ماء لأشرب فجاءني الرد : راح تشرب في لبنان ، كما كان بعض الشباب يعترض على سبّهم الربّ و الدين و العرض فيأتيه السبّ مضاعفاً ، و وقف جنديّ يضرط بجوار أحد الشباب ، ثم سأل الشاب : إيش هذا ؟ شو اسمه ؟ ها ؟

كان الحياء قد نزِع منهم ، بل هو معدوم فيهم ، فما عادوا يراعون حُرْمة ، و لا شيبة ، و لا أدباً ، و لا خلقاً ، و صدق رسول الله إذ يقول : "إنّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت" .

إن الذي ولد من الفاحشة ، و تربّى في محاضن اللقطاء ، و نشأ في الرذيلة ، أنى يكون صاحب خلق ، و أنى له الأدب ، هذا ما كانت تستشعره النفس حينما تستعرض شريط الممارسات الشاذة .

وقفت الحافلة ساعات أدركنا خلالها أننا وقوف ريثما يصدر قرار المحكمة بالموافقة على قرار رئيس أركان الجيش الصهيوني (يهودا براك) بإبعادنا ، و كان قرار رئيس الأركان قد صدر منذ زمن ، لكن دولة (إسرائيل) الديمقراطية !!! ما كان لها أن تنفّذ القرار إلا بعد موافقة المحكمة كي يُلبَس قرار الإبعاد لباس القانون و العدالة ، ذاك القانون الذي كنا ضحاياه ، و الذي ما كان يمكن لدولة (إسرائيل) تنفيذه إلا و نحن وقوف اثنتي عشرة ساعة في منطقة الحزام الأمني ذات الحرارة المتدنية ، و الثلوج المتساقطة ، لم تستطع دولة الكيان الصهيوني و لم تسمح لها أخلاقياتها أن تبقينا في معتقلاتها حتى يصدر القرار ، و أبى عليها ضميرها الميت إلا زجّنا في تلك الحافلة التي علمنا فيما بعد أنها ليست حافلة و إنما حافلات بلغ عددها اثنتين و عشرين حافلة ، و رأت إبقاءنا في أرض الثلوج و بين هراوات الجنود و استفزازاتهم ساعات طويلة .

لم ينسَ الجنود تقديم وجبة الغداء لنا من باب حقّ الأسير و كرم الضيافة ، أما وجبة الإفطار فلم يعد بالإمكان تقديمها إذ مضى وقتها ، و يغني عنها طعام الغداء الذي لم يكن ليكفي الواحد فضلاً عن أن يسدّ مسد وجبتين ، لقد قدّموا لكل واحدٍ منا كيساً بلاستيكياً حوى : بيضة ، و شطيرة لبنة ، و قطعة جبن ، و تفاحة صغيرة ، لكن كيف نأكل و القيود بأيدينا ، و أيدينا خلف ظهورنا ؟ لقد كان من مستلزمات الضيافة و الكرم اليهودي أن يقدّم لنا الطعام فرادى واحداً تلو الآخر .

و جاء دوري فرفعوا العصابة عن عينيّ ، و فكوا القيود من يديّ و كانت تلك هي المرة الأولى التي تتحرّر فيها يداي من القيود خلال خمس عشر ساعة ، و لم أستطع التقاط الكيس من يد الجندي و لا أن أمّد يدي نحوه نتيجة تمزق أصاب كتفيّ بسب شدّهما إلى الخلف ، فألقى الجندي الكيس بين يدي و انصرف ، فاغتنمت غيابه و بدأت أدلك معصميّ بيديّ المنتفختين من شدّ القيود عليهما ، غير أن الفرصة لم تطل و الفرحة لم تدم ، فسرعان ما عاد الجندي و هو يحمل قيداً حديدياً في يده ، لم يلبث أن

وضع يدي فيه من الأمام ليتأكد أني لن آتي بحركة ، و ليمضِ قرار أسياده ، فالأكل بلا قيود غير مسموح به في عرف الحكومات الإرهابية . ماذا سآكل ؟ و هل مثلي يشتهي الطعام و هو على تلك الحالة ؟ و إذا ما أكلت و اضطررت إلى قضاء الحاجة ، فهل سيسمح لي بقضائها أم أنني سأبوء بثقلها و شرّها؟

تناولت لقيمات من شطيرة اللبنة ، و قضمت قضمات من التفاحة الصغيرة ، كلّ ذلك ليس بهدف الشبع و إنّما لتغيير رائحة الفم ، و إشغالاً للمعدة ، و إسكاتاً للجَوعة ، و قد أمضيت في تناول تلك اللقيمات القليلة أكثر من ربع ساعة كان الهدف من الإطالة نيل أكبر قسط من الراحة ليديّ المتعبتين قبل شدهما خلف ظهري مرّة أخرى .

كان الجندي الواقف قريباً مني يرمقني شزراً و هو ينتظر فراغي من تناول تلك اللقيمات القليلة كي يعيدني في قيودي لينتقل إلى آخر غيري ، و ما إن شعر بتوقّفي عن الأكل حتى عمد إليّ ، و انشغل في فتح القيد الحديدي ، و استعصى القيد على السجان كما استعصى السجين عليهما ، و راح يحاول فتحه بشتى الوسائل و السبل ، و قد بدأ محاولاته الأولى بتعقّل و لين ثم لم تلبث أن أصبحت مشادة فمصارعة ، و الضحية الوحيدة يدي .

كنت أدعو اللّه ألا يفتح القيد ، و أن تتعطل سائر المفاتيح التي جاءوا بها ، ففي عدم فتحه راحة لي ، و إبقاء ليديّ كما هما دون شدّهما خلف ظهري ، و كان الجنود يتناوبون المحاولات تلو المحاولات ، كلٌ يستعرض قوته ، و القيد لا يزال على عناده و صلفه لا يلين و لا ينثني ، أكثر من نصف ساعة و هم يحاولون ، و يدي بين أيديهم كريشة في مهب الريح لا تستقر في مكان .

و انفتح القيد أخيراً و لكن من جهة واحدة ، و حاولوا فتح الحلقة الثانية فلم تنفتح ، فقرروا جمع يديّ خلف ظهري ، و تركوا القيد الحديدي معلّقا بيدي اليمنى ، و كان إبقاؤه بهذه الطريقة و على هذه الهيئة أمراً غير محمود النتائج ، فهو من جهة ثقيل الوزن ، و من الجهة الأخرى ضيق جداً ، و ما كان ينجيني منه بعد اللّه سبحانه و تعالى سوى الصراخ المستمر حتى جاء جندي أدرك ما أعانيه فحاول فكه مراراً ، و لما لم ينجح أمرني بالنزول من الحافلة و كانت فرصة غالية لا تقدر بثمن ، إذ يكفيني فيها أن أشم هواء نقياً غير هواء الحافلة المقفلة ، و إن قدّر و أذن لي بقضاء الحاجة فتلك نعمة تستوجب الشكر العظيم ، و الحمد الكثير للّه تعالى .

غير أنّ النّزول كان فيه من العناء أضعاف عناء القيد و ألم الحديد ، إذ كيف أنزل و أنا مقيّد اليدين و القدمين ، معصوب العينين ، أدرك الجندي أني لا أستطيع كذلك تجاوز الصناديق الكرتونية المرصوصة وسط الحافلة ، و المملوءة بمعاطف البلاستيك العسكرية التي لم نعرف لوجودها سبباً إلا حينما غادرنا الحافلات في جنوب لبنان ، أدرك الجنود ما أعاني ، و أدرك أن العقبة أمامي كؤود ، و أني لا أستطيع القفز أو المشي فوق الصناديق للوصول إلى باب الخروج ، فرفع العصابة عن عينيّ و جذبني إليه جذبة تجاوزت بها الصناديق رغم العثار و السقوط ، و وقفت في أعلى درجات سلم الحافلة لا أقوى على النزول ، كيف أنزل و القدم لا يمكن إزاحتها بسبب القيد سوى سنتيمترات معدودة ، لا بّد من النزول ، و لكن كيف ؟ و أخيراً نزلت زحفاً على إستي حتى استقر بي الأمر بجوار الحافلة .

بدأت محاولات فك القيد الحديدي مرّة أخرى ، و عاد الجنود يخلف بعضهم بعضاً في تلك المحاولات الفاشلة ، كم صرخت من الألم ، و هم يشدّون و يشدّون و لكن ظننت أن يدي ستكسر أو ستخلع من معصمها ، لقد استمرت المحاولات أكثر من نصف ساعة نجح في نهايتها أحد الجنود في فك القيد .

و قبل أن أصعد قفزاً ذاك السلم الذي نزلته زحفاً طلبت من الجندي الموكل بي الإذن في قضاء الحاجة ، فأذِن ، و وقفت يرقبني و أنا على تلك الحالة ، مما اضطرني إلى الانحراف عنه حتى لا يطلّع على عورتي ، و اغتنمت الفرصة فاختلست نظرة لما حولي ، ما كان يمكنني اختلاسها إلا و أنا كذلك ، كانت المرّة الأولى التي أشاهد فيه المعبر الواقع في منطقة الحزام الأمني ، و الذي سلخ من جسد لبنان عام 1982م ، لمحت عن بعد عدّة حافلات تتقدّمنا ، دهشت لوجودها ، و رحت أسأل نفسي : لم هذه الحافلات ؟ أيعقل أن توجد حافلات سياحية في هذا الموقع الخطر ؟ لم أكن أعلم أنها من ضمن الحافلات التي أبعد فيها أكثر من أربعمائة

فلسطيني مسلم .

عاد بي الجندي إلى مقعدي الذي كنت أجلس عليه ، و على الصورة التي كنت عليها لحظة بدء رحلة الإبعاد ، في تلك اللحظات تنازعتني مشاعر جمّة ، و خواطر كثيرة منها ما أفرحني ، و منها ما غمّني ، فرحت .. إذ بالإبعاد – و الإبعاد وحده- كان يمكن أن تتاح لي فرصة رؤية إخواني الذين لم أرهم منذ سنين خلت ، و ما كان يمنعني من رؤيتهم إلا تلك الحواجز العسكرية و الاعتقالات الأمنية ، و القيود المخابراتية ، و الهويات الخضراء ، و الأوامر بمنعي من السفر ، ما كان يمكنني رؤية أخٍ لي لم أره منذ عشرين سنة ، و الآن و أنا على مقعدي من تلك الحافلة اللعينة يلوح لي طيفه ، و أتذكر قسمات وجهه ، و فرحته بلقائي و أنا الأخ الصغير ، و فرحتي به و هو الأخ الحبيب الكبير .

استعرضت أطياف ذرية أبي التي قدّر عليها أن يعيش أكثر أفرادها في الشتات ، بدءاً بالبحث عن اللقمة ، و انتهاءً بالمنع من العودة ، كان أكثر أفراد عائلتي يقطن الكويت بعدما منعوا العودة إلى الوطن ، و الآن و بعد حرب الخليج توزّعوا و تفرّقوا في الأصقاع و البلاد ، لقد كان يطيب لي أن ألقاهم ، و ألقى أزواجهم و ذرياتهم ، و ها هو ذا الأمل قد لاح .

كانت هذه الخواطر تفرِحني ، و يحلو لي تصيّدها ، و السباحة في بحرها ، و الركض في دروبها ، و لم يكن يفسدها عليّ إلا خواطر و مشاعر تبعث الحزن ، و تُجري الدمع ، و تُبكي القلب ، و تُذهب الفرحة ، كان القلب يعتصر أسىً ، و الصدر يضيق بما فيه ، و أنا أرى المسافة تزداد و الهوة تتسع بيني و بين مرابع الصبا ، و دروب الحيّ و معالم البلد .

أيعقل أني لن أراك يا بلدي ؟

أيعقل ألا أصلّي فيك مرة أخرى يا مسجدي الغالي ؟ أيها الأقصى الحبيب الذي خضب ترابك جبيني و أنست روحي في رحابك و أنا أنتقل بين القبة و المسجد ، و بين المعتكف و المكتبة .

أيعقل أن يأتي رمضان و لا أفطر في ساحاتك مع عصبة الإيمان ؟ أيعقل أن أحرم من حضور الجُمَع فيك ؟ و أنا الذي لم أكن أُرى إلا فيك ، أنا ما زلت أذكر تلك المجزرة التي ذهب ضحيتها عشرون من خيرة أهل فلسطين في الذود عنك و عن حرماتك .

أأقتل و إخواني اليوم بالإبعاد عنك لأننا نحبُك ؟!!

تذكّرت صلاتي فوق مصاطبك ، و في نواحيك و أرجائك ، أيعقل أن أحرَم منك ؟ قاتل اللّه الظالمين (و من أظلم ممن منع مساجد اللّه أن يذكر فيها اسمه و سعى في خرابها) ..

خطر ببالي شقيقي الذي أحبّه ، و أحبّ أولاده حبّي لأولادي ، شقيقي الذي كنت أبدأ يومي و أختمه بالسلام عليه ، و الذي ما كان ينام حتى يدخل بيتي ، و ما كنت أغفو حتى أطمئن عليه ، كانت القلوب متآخية متآلفة فهل سيفرّقون بينها ؟

خطرت ببالي شقيقتي التي كانت عندي في مقام أمي رحمها الله ، أختي التي أحبّها حباً يربو على الوصف ، أختي تلك التي رضيَت لنفسها أن تقطع المسافات الطويلة لزيارتي في كلّ مرات اعتقالي ، و ما تأخرت عن زيارة قط ، و لا ردّها يوماً صراخ سجان و لا مشقة سفر ، أختي التي كنت أسُّر برؤيتها ، و ينشرح صدري بابتسامتها ، لقد كانت تزورني و أنا خلف القضبان فكيف ستزورني اليوم و أنا مبعد ؟

أنا أحلف أن من قال إن الإبعاد خير من السجن أضلّ من حمار أهله . أما زوجتي و صغاري ، فمن الطبيعي أن يلحقوا بي إلى أرض المنفى ، إلى حيث ستلقي بي رياح الغربة ، و عواصف الإبعاد ، و لكن ما أقسى أن يترك هؤلاء الأطفال مدارج طفولتهم ، و أبناء عمّهم الذين يعيشون معهم كأنفسهم ، و مدارسهم التي يتعلّمون فيها ، و زملاء دراستهم ، و أناشيدهم ، و لعبهم ليعيشوا حياة جديدة هم غرباء عنها ، جهلاء بها .

كم سيستغرقهم التأقلم و اتخاذ الأصحاب ؟ و هل سينسون أصدقاءهم ؟ و هل سينسى ولدي مسجده الذي اعتاد الذهاب إليه بصحبة تربه و ابن عمه ؟ لقد كانا يذهبان إليه دونما استئذان مني ، لعلمهما أن الأمر يسرني غاية السرور .

و هل ستنسى ابنتي مدرستها التي تقف أحياناً أمام ميكرفونها من خلفها صباحاً لتتلو سورة من القرآن أو تصدح بأنشودة تحفظها

، و أترابها من خلفها يردّدن ؟ أيمكن لأطفالي أن ينسوا بسهولة ذكرياتهم و ينسجوا غيرها ؟
تُفَتِّتُ قلبي و تذهب بلبّي تلك المشاعر التي تنتابني كلما تذكّرت زملاء الدراسة و التدريس ، وإخوة المسجد و رفقاء المعتكف ، و المعارف و الخلاّن ، و الأقارب ، و الجيران ، و الطلاب و الطالبات من تخرّج منهم و من لم يتخرّج ، أكثر أهل بلدتي أعرفهم و يعرفونني .
ترى كم من الوقت سأحتاج حتى أجد غيرهم ؟ و هل سأجد مثلهم ؟ و من هم بمثل طبيعتهم ؟ و هل يمكن نسيان الرفقة و الصحبة ؟ إن لي في كلّ بلدٍ معارف و أصحاباً ، فهل يمكن إيجاد أمثالهم في بلاد الغربة و الإبعاد ؟ كانت الخواطر تتسارع في ذهني ، فذهني بها مشغول ، و قلبي منها في ذهول ، تلك المشاعر و الخواطر المتصارعة ما كان يقطعها غير صوت الجنود و قهقهاتهم ، و ضربات عصيّهم ، و لطمات أكفهم .
و أقبل المساء يجرّ رداءه الأسود يجلّل به وجه الأرض ، و ينشر على الدنيا السكوت و الهدوء ، و نحن في حافلتنا على النحو الذي أسلفت الحديث عنه ، و جيء بطعام العشاء ، و شرع الجنود يمرّرونه علينا ، واحداً إثر آخر ، و كنت من آخر من قدّم إليهم الطعام الذي لا يختلف في نوعيته و كميته كثيراً عن طعام الغداء ، و لم تكد يدي تمتد نحوه حتى صدرت إليّ الأوامر بكفّها ، و كنت قد قضمت ثلاث قضمات من حبة التفاح الصغيرة فلم أتمها ، و طلبت كأساً من الماء فلم أسقه ، و بقيت ظمآناً حتى أذهبت حرّ كبدي من سيلٍ متدفع على قارعة الطريق حيث أنزلنا الجنود من الحافلات ، و استعجل الجندي المسمى جريس فقيدي – كان المدعو جريس أسوأ الجنود و أشرسهم ، و كان متزعّما لحملات القمع و البطش و الاستهزاء – شعرت لحظتها بأن المحكمة قد أصدرت قرارها بالموافقة ، و أن الأمر صدر للجنود بالانطلاق ، فقد كان الجنود في هرجٍ و مرج عارمين ، في ذهاب و إياب ، و انشغال و استعجال ، قيّدونا قبل فراغنا من طعامنا ، و راحوا يعدّون عدّهم ، و جاء الضابط المسؤول يحمل الأوامر للجنود ، و يحمل لنا مفاجأة ، ألقى على جنوده التعليمات و لم يزل يوصيهم و يحذّرهم حتى أدركنا من خلال كلامه الذي لم نفهم منه إلا القليل أنه رحيم بهم ، حريص عليهم ، ثم التفت إلينا وشرع يضع في جيب كلّ واحد منّا ورقة لم أميّزها إلا بعد حين ، حيث تردّدت مقالة بين الشباب مفادها : أنّ اليهود وضعوا في جيب كلّ واحدٍ منا خمسين دولاراً ، فمددت يدي إلى جيبي في مرج الزهور لأجد صدق المقالة ، و سألت نفسي متعجّباً : ما الذي حملهم على إعطائنا الدولارات ؟ أهي الرحمة التي يدّعونها ؟ أم هو الخوف علينا من الضيّعة و الفقر ؟ أم أنّ هذه الدولارات ثمن إبعادنا ، و طردنا عن أوطاننا ، و مفارقتنا لأهلنا ؟؟؟!!! .
كانت الساعة قد جاوزت السابعة مساء ، حينما تحرّكت حافلتنا و راحت تجوب أرض الجنوب اللبناني ، أرض الحزام الأمني و المنطقة الأمنية ذات التعرجات الكثيرة ، لقد كانت تسير و لا ندري إلى أين تسير ، إلى أي مدينة تسير ؟ إلى أي قرية تسير ؟ لكننا كنا نعرف حقّ المعرفة أنها تسير إلى أرض الإبعاد ، إلى أرض لبنان .
و في طريقنا نحو تلك الأرض الجرداء التي قرّرت الحكومة قذفنا إليها كانت الحافلة كثيراً ما تتوقّف ليتزل بعض الجنود هنيهة من الزمن ثم يصعدون أليها مرة أخرى لتنطلق في نواحي ذاك الجنوب ، لقد كانت مركز تفتيش ، و معسكرات جيش ، و إن نسيت فلست أنسى تلك اللحظات التي ذعر فيها الجنود و استنفروا ، و لبسوا الخوذ الحديدية ، و وضع كلّ جندي إصبعه على زناد بندقيته الآلية ، و أخذ موقعه بين الشباب المقيّدين على طول الحافلة و عرضها ، متترّسين بهم ، أيقنت وقتها أن تلك المنطقة من المناطق الخطرة التي تكثر فيها الاشتباكات و المعارك .
كانت الأفكار تتقاذفني ، و التصورات المختلطة تجتاحني و أنا أساق إلى حيث لا أدري ، كنت أتخيّلهم سليقوننا زرافاتٍ و وحداناً قرب تلك القرى المنبثة في الجنوب اللبناني ، و كنت أتخيّل حالنا و قد تشتّتنا في أنحاء تلك الأرض التي لا نعرف دروبها و مسالكها ، و أين ترانا سنذهب في الليل البهيم ؟ و من سيستقبلنا ؟ و إن عثرنا على بيتٍ فهل سيفتح صاحبه الباب لنا ؟ و أين سنبيت حتى يطلع الفجر ؟ لعلّ المسجد هو أفضل مكانٍ نبيت فيه ، و لكن من سيهدينا إلى بيت الإمام أو بيت المؤذن ليفتح لنا

المسجد ؟ و إن فرّقونا على طول خط السير فكيف سنلتقي ؟

لربما كان السير على قارعة الطريق حتى يطلع الصبح أفضل حلّ لمشكلتنا ، و كيف أسير و المطر منهمر ، و البرد شديد و الظلمة حالكة ؟ و لو أني نجحت في الإبقاء على حياتي حتى يطلع الفجر فكيف سأصل إلى بيروت و أنا لا أعرف الطريق ؟ و كيف سأصل و أنا لا أملك ليرة واحدة ؟ (لم أكن أعلم وقتها أن ما وضع في جيبي مال) و كيف سأصل و أنا لا أحمل وثيقة سفر أو أية ورقة تثبت هويتي أو تصدقني إن عرّفت بنفسي و قلت إني فلان .. ؟

خواطر و أفكار ، هموم ، و غموم ، آمال و طموحات كانت تتجاذبني و أنا بينها بحّار تكسّرت مجاديفه ، و سفينة تمزّق شراعها ، و ما كان ينجيني منها سوى الذكر و الاستغفار ، فقد كان الدعاء و الابتهال هما الملاذ الوحيد لمستضعف سيم أصناف الخوف ، و مورس عليه الإرهاب ، و تفنّن في تعذيبه ، كان للذكر و الدعاء و القرآن معاني ما كان يمكنني استشعارها لولا هذه المحنة .

المحنة الربانية التي لا يقوى عليها إلاّ من ربط قلبه بربه ، و توكّل عليه ، و ألزم نفسه الاستغفار و حمّلها على الصبر حملاً ، فقد كان لدعاء سيدنا يونس عليه السلام و هو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) ظلالٌ وارفة من الأنس بالله ، و الثقة بعونه ، و الصبر على قدرة ، و تسليم الأمر له ، و كان لسورة الفاتحة أنوار و إشاراقات لم أتبيّنها على كثرة ترديدي لها ، و كانت كلماتها تقع من نفسي موقع البلسم الشافي من القلب العليل ، فتبعث فيه الدفء ، و السكينة ، و اليقين .

كانت طهارتنا تيمماً ، و صلاتنا جمعاً و قصراً ، و لم نكن نقوى على الوضوء ، فإذا كان القوم لا يأتونك بماء لشربك فهل سيأتونك بماء لطهورك ؟ و ما كانوا يطلقوننا لطعام ، فهل سيطلقوننا لصلاة ؟

إنها أمور محرّمة في تعاليمهم و قوانينهم ، و إنّ النظم و اللوائح تأمر بعكس هذا ، لذا كانوا يوجّهون الضربات إلى رأس من يشعرون بأنه يصلي ، و كم من المرات حاولوا أن يحولوا بيننا و بين صلاتنا سواء بالحديث معنا ، أو بتهديدنا ، أو بنقلنا عن مقاعدنا إلى مقاعد أخرى ، أو بضربنا .

لم يكن يقدر على التيمم إلا القليل منا ، إذ كيف يمكننا التيمم و أيادينا خلف ظهورنا ، و على الرغم من كلّ أساليب المنع كنا نصلي آحاداً نومئ بأعيننا حتى لا يشعر بنا أعداؤنا ، غير أن بعضنا كان يرفع صوته بالتكبير ليأتمّ به إخوانه من خلفه ، هؤلاء كان ينالهم من الأذى أضعاف ما كان ينال من يصلي منفرداً .

ما كنا لنترك الصلاة التي رضعنا حركاتها مع اللبن ، و نشأنا عليها صغاراً ، و لم نزل نؤدّيها كباراً في سفرنا و حضرنا ، في صحتنا و سقمنا ، أنتركها اليوم و نحن أحوج ما نكون إليها ؟!!!

و هي متنفسنا الوحيد وسط هذا الجو الكئيب و الحال الرعيب (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر و الصلاة إن اللّه مع الصابرين) ، لذا كان بعضنا يؤدّي صلاته على الرغم من الثياب المتسخة بالبول و الغائط ، و قد صلّيت يومين في ثيابي الملطخة بالقيء إذ كنت مريضاً .

و في الطريق كان الألم قد بلغ مني مبلغاً عظيماً ، إذ كانت القيود قد أدمت قدمي فلم أعد أشعر بهما نتيجة الخدر الشديد الذي سرى فيهما ، و رأيت أن أستصرخ الجندي علّه يستجيب و استجاب جريس هذه المرّة ، و أمرني برفعهما على المقعد كي يتسنى له قطع القيود ، غير أني لم أقوَ على رفعهما ، فاضطر إلى رفعهما و بدأ يقطع القيود البلاستيكية بقطاعته البليدة ، التي لم تكن لتقطع إلا بعد الضغط الكبير عليها ، و هزّ القيد يمنة و يسرة ، و ارتفاعاً و نزولاً ، و مراراً و تكراراً .

لقد تمكّن من قطعها جميعها إلا أنه سرعان ما أبدلها بثلاثة قيود أخرى ، و لم أدرك مدى إصابتي إلا في مرج الزهور حينما نظرت إلى قدميّ فرأيت أن القيد قد عمل فيهما عمل السكين ، و فقاعات الصديد قد ظهرت عليهما ، الأمر الذي استغرقني شهراً كاملاً في معالجة الجروح و القروح ، أما أثار القيود فهي باقية شاهدة على ظلم الظالمين و صلف المتكبرين .

و توقّفت الحافلة أخيراً ، و كثر حولها الهذر الذي لم نكن نفقه منه شيئاً ، و شرع الجنود يتزلوننا الواحد تلو الآخر ، حتى جاء دوري ، فقُطعت القيود من قدمي ، و جذبني أحد الجنود حتى أخرجني من الحافلة ، ثم فكّ قيودي و نزع العصابة عن عينيّ اللتين

لم تبصرا سوى الظلام من شدّة الإغماض و طوله ، و من حلكة الليل الذي غاب قمره خلف ساترٍ من الغيوم الكثيفة ، فأحال الأشياء سواداً في سواد .

كان أول ما وقع عليه طرفي جمهرة من الجنود المدجّجين بالسلاح بينهم ثلة من الضبّاط أصحاب النياشين و الرُّتب ، و لم أكد أسأل نفسي : أين أنا ؟ و من القوم ؟ حتى وجدت نفسي أدفع نحو شاحنة (قلاّب) ، و وجدتني أحاول صعودها ، و ما إن مددت يديّ أحاول الإمساك بأحدِ أطرافها حتى تلقفني بعض الرجال الذين على ظهرها ، و سمعت قائلاً يقول : الحمد لله على سلامتك .

وقفت مشدوهاً أسأل نفسي : ما الذي يجري ؟ لم كل هذه الحافلات الواقفة ؟ أين أنا ؟ من هؤلاء الرجال الذين يركبون ظهر الشاحنة ؟ و من هؤلاء الجنود الذين يتكلّمون العربية بلهجة لبنانية ؟

تساؤلات خطرت ببالي و سألتها نفسي و أنا أقف بين الرجال على ظهر الشاحنة ...

و رويداً رويداً بدأت الصورة تتضح ، و الغشاوة تنجلي ، لقد أصبحت اليوم أقف في النقطة الفاصلة بين الجيش و بين الدولتين و بين الحكومتين ، فها هم الجنود الصهاينة يوصلونني مع هذا النفر المتوضئ من شباب فلسطين إلى نقطة اللاعودة ، إلى آخر موقعٍ يمكنهم وصوله بأمان ، إلى المكان الذي عليّ أن أنطلق منه إلى عالم آخر ، و أرض أخرى غير فلسطين ، ليس فيها المسجد الأقصى ، و لا قبة الصخرة ، و لا المسجد الإبراهيمي ، و لا مهد المسيح عليه السلام ، و لا .. و لا ..

بوصولنا إلى تلك النقطة الحدودية كان الجنود الصهاينة قد أنهوا مهمتهم التي ساندهم و ساعدهم في إنجاحها جمع من جيش لبنان الجنوبي الموالي للكيان الصهيوني ، ذلك النفر من الجنود الذين يتكلّمون العربية بلكنة لبنانية ، أما الحافلات الكثيرة الممتلئة بالرجال المعصوبة عيونهم المقيدة أياديهم ، فهي حافلات كتلك الحافلة التي أُبعدت فيها و من معي ، لقد كان عددها كثيراً كثرة يعجب لها العاقل !! أيمكن أن يبعد اليهود حمولة اثنتين و عشرين حافلة ؟ و لم لا ، و قد أبعدوا أكثر من أربعة ملايين من أبناء الشعب الفلسطيني ، و تلفّت يمنة فرأيت خمس شاحنات مليئة بالرجال فأيقنت أن أخلاق اليهود (النبيلة) ، و قلوبهم (الرحيمة) تأبى عليهم أن يتركونا نهيم على وجوهنا في أودية لبنان و جبالها ، لذا فقد جهّزوا لنقلنا هذه الشاحنات ، و من قبل كانت تنقل الحجارة و الدواب ، فهي قذرة وسخة تحمل من روث البهائم و بقايا الأتربة و الحجارة ما لا يصلح الجلوس على أرضيتها ، فآثرنا الوقوف و الازدحام على الجلوس و التلطخ بالروث .

انتهت الرحلة و نفذ القرار ، و غدونا مبعدين ، كثير ممن حكم الظلم بإبعاده كان ساعتها يعيش في دوامة لا يعرف لها مخرجاً .

كثير منهم لم يكن يفقه شيئاً مما يجري حوله ، بكى بكاء مريراً حينما علم أنّه مبعد و أنّه يقف الآن على أرض لبنان .

و صدم البعض . و استرجع آخرون . و أمسك قوم عن الكلام . بينما شمّر أهل الصبر و المروءة عن ساعد الهمة و النخوة ، و راحوا يخفّفون عن إخوانهم عظم المصيبة ، و رهبة الغربة ، فقائل يقول : (و بشر الصابرين) .

و آخر يحدّث بحديث خباب بن الأرت رضي اللّه عنه عن رسول اللّه : "و الله ليتمّن اللّه هذا الأمر" ..

و من مذكّر بقول الرسول (عليه الصلاة و السلام) : "إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء ، و إن اللّه تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا و من سخط فله السخط" .

و سرى بين الشباب قول اللّه تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا و صابروا و رابطوا) . و قوله تعالى : (و لنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم و الصابرين) .

و انبرى أحد الأخوة يردّد قول النبي الكريم : "ما يزال البلاء بالمؤمن و المؤمنة في نفسه و ولده و ماله حتى يلقى اللّه تعالى و ما عليه

خطيئة" . استعينوا بالله يا شباب . لقد أُخرِج رسولكم و أصحابه رضوان اللّه عليهم ، أذكروا قصة أصحاب الأخدود . سترجعون بإذن اللّه فاتحين . لا تقنطوا من رحمة الله .

و في أثناء ذلك قام بعضنا بتوزيع المعاطف البلاستيكية الرقيقة التي ألقاها إلينا الجنود ، فوزّعناها بيننا ، و تدرّعنا بها في هذا الطقس الشتوي الذي تدنت فيه درجات الحرارة دون الصفر ، و حسبك أنك في جبال لبنان ، جبال الثلج و البرد .

انطلقت بنا الشاحنات في تمام الساعة الثانية و النصف من صباح يوم الجمعة المبارك 1992/12/17 باتجاه مركز الجيش اللبناني ، كانت الطريق ذات منعطفات خطرة حادّة الانحناء ، شديدة المزالق ، يهوي القلب ، و تزيغ الأبصار و هي تلحظ الخطورة الكامنة خلف السرعة الفائقة التي يقود بها أصحاب الشاحنات شاحناتهم ، و كان لساني لا يكف عن الدعاء و التوجه إلى اللّه أن يحفظ الشباب الذين ضاقت بهم الشاحنات ، حتى أصبح انقلاب شاحنة في الأودية السحيقة يعني أحزاناً و أتراحاً في بيوت كثيرة في فلسطين ، و مجزرة رهيبة المسؤول الأول و الأخير عنها حكومة الكيان الصهيوني العاتية المتمردة على كلّ القوانين الإلهية و البشرية، و لكن اللّه سلّم .

وقفت الشاحنات بعد مسيرة ربع ساعة أمام مركز الجيش اللبناني في قرية مرج الزهور ، و اقترب من الشاحنة الأولى بعض الجنود كانت تظهر عليهم معالم الطيبة و الترحاب و التعاطف معنا بدخول لبنان ، إذ الأوامر الصادرة إليه تقضي بمنعنا من الدخول ، فشكرنا له حسن خلقه و أدبه ، و لطف تعامله ، و عدنا أدراجنا إلى المعبر ، تلك النقطة التي تركِنا فيها ساعة إنزالنا من الحافلات ، لم نتمكن من الوصول إليها غير أنّا اقتربنا منها حتى لم يعد بيننا و بينها سوى أمتار معدودة .

و هناك كان حديث الشباب ينبّئ بأننا سنقيم عند المعبر (معبر زمريا) لا نجاوزه ، و لا نتحوّل عنه إلاّ إلى فلسطين ، و بدأ الوجل يزول ، و الخوف يختفي ، و عادت أحاديث الصداقة و الأخوة ، و لقاءات المحبة و المودّة ، و راحت السلامات و التحيات تتجاوز الشاحنة الواحدة لتصل إلى شاحنة متقدّمة و أخرى متأخرة ، و طرقت سمعي أسماء عديدة ، عرفتها ، و عرفت أصحابها .

قلت في نفسي : سبحان الله ، لقد جاءوا بالشعب الفلسطيني ، لم يتركوا أحداً ، لقد أبعدوا معظم علماء الأمّة ، لم يبقَ أحد من أهل فلسطين فيها !! كانت الأعداد كبيرة ، غير أن الرقم الدقيق لم أكن أعرفه وقتها ، لكن النظر كان يخبر صاحبه أنها بالمئات ، في ذاك الموقع النائي الموحش بين تلك الجبال المكسوّة بالثلج ، راح أحد الشباب يعلي نداء الإسلام و يرفع ذكر اللّه في تلك البقاع التي لم يذكر اسم اللّه عليها منذ أمدٍ بعيد ، و يعلن بزوغ الفجر ، و انحسار الظلام ، و مضى المؤذّن في أذانه حتى أنهاه رغم زخات الرصاص التي أطلقها جنود اليهود فوق رؤوسنا .

و عقب الأذان نزل بعضنا من الشاحنات لقضاء الحاجة ، بينما استعدت البقية الباقية لأداء صلاة الصبح ، و قد تيمّمنا بالضرب على ملابسنا و ملابس بعضنا بعضاً ، ثم اصطففنا متراصين فوق الشاحنات و صلينا صلاة إيماء لا سجود فيها ، إذ العدد كثير ، و الشاحنات قذرة و وسخة .

و رحت أسال من حولي من الشباب عن شربة ماء ، أطفيء بها ظمئي ، فقد كان الظمأ قد أخذ مني كلّ مأخذ ، و بلغ بي منتهاه ، و لما لم أجد بغيتي عند الشباب سألت السائق الشاحنة الذي اعتذر بدوره ، إلاّ أنه أخبرني بوجود نبعة تبعد عدّة أمتار ، و حذّرني من التوغّل في المنطقة إذ أنها مزروعة بالألغام ، فآثرت السير على جادّة الطريق ، و على بعد مائتي متر وجدت سيلاً متدفقاً بغزارة عبر الشارع ، و لم أدَع لنفسي فرصة للتفكير في أمر هذا السيل المتغيّر اللون فغرفت منه غرفات أذهبت بها حرّ جوفي ، و أطفأت بها عطشي .

في تلك الأثناء كانت الأوامر العسكرية الصهيونية قد صدرت بطردنا من تلك المنطقة (المعبر) و لو بالقوّة ، و على الفور تحرّكت المدرعات نحونا ، و سلّطت الأضواء الكاشفة علينا ، و فغرت الرشاشات أفواهها ، و صبّت فوق رؤوسنا صلياتها ، كما صدرت الأوامر لأصحاب الشاحنات بإنزالنا ، و حفاظاً على حياة الشباب فقد كان من الحكمة أن نبتعد عن مصادر النيران و نحن العزّل من كلّ شيء إلا العزّة و الكرامة و الإيمان باللّه ، فتترّسنا ببعض الجبال حتى يقضيَ اللّه أمراً كان مفعولاً .

و مع بزوغ الفجر ، و زوال العتمة ، كانت سيارات الصحافيين واقفة تنتظر أربع مائة و خمسة عشر مبعداً لتستجلي أخبارهم و تسمع آراءهم . و كانت مرج الزهور ، و كان القرار بالبقاء ، و كان مخيم العودة و كانت جامعة ابن تيمية ، و كانت أيام ما زالت الأقلام تخطّ أحداثها حتى كتابة هذه السطور . **تمت بحمد اللّه1993/2/1**

رسائل مُبْعَد

إلى ابنتي

إليك يا ابنتي العزيزة .
إليك يا حبيبة قلبي وأنيسة روحي .
إليك أطيّر هذا البالون .
بعد مرور شهرين على فراقك .
بعدما حيل بيني و بينك .
حرموني منك حينما اقتادني الجنود مكبّل اليدين معصوب العينين .
لم أقوَ وقتها على إشعال ضوء الغرفة التي تنامين فيها .
آثرت حمل لهيب أشواقي بين ضلوعي على أن أُوقظك من نومك .
ابتعدت عنك رغماً عني دونما وداع .
دونما عناق و دونما ابتسام .
يا حبيبتي الصغيرة
لعلك تنتظرينني صباح كلّ يوم لأنتزعك من سريرك
و أضمّك إلى صدري أو أدثّرك بدثاري .
لعلك تنتظرين مساء كلّ يوم كما عوّدتك و عوّدتني
أحمل إليك أكياس البمبا و البسكويت .
أنا لم أنسَ ابتسامتك و أنت تفترشين الأرض و تأكلين البمبا .
تهربين إليّ و تلوذين بي كلما ضايقك إخوانك .
لم أنسَ أني كنت لك الحصانَ و كنتِ الفارس .

و لم أنس أول كلمة أفْتَرَّ عنها ثغرك الباسم .
لعلك نسيتها ، نسيت كلمة بابا .. بابا .
تلك الكلمة التي كان يطيب لي سماعها من فمك الصغير بصوتك العذب .
لعلك نسيتها اليوم بعدما أبعدوني عنك .
فأنت لم تتجاوزي العام و النصف .
أو لعلك تذكرينها و لا تزالين تردّدينها .
يا حبيبتي الحلوة.
لقد وصفني الأعداء بالإرهابي .
و أنا لست أدري من الإرهابي .
أنا الإرهابي ؟! أم من فرّق بين و بينك .
أنا يا ابنتي لا أهوى البعد عنك و لا أحبه .
ليس الذنب ذنبي إذ ابتعدت عنك .
لكنه ذنب الذي لا يعرف قلبه الرحمة .
و لا تعرف مشاعره معنى الأبوة .
و لا تعرِف عيونه الدموع لبكاء طفل يبحث عن أبيه .
ذنب الذي يأمر جنوده بقتل الأطفال .
ذنب الذي منعني من ضمّك إلى صدري .
ذنب الذي مسح الابتسامة عن ثغرك .
يا فلذة كبدي ، يا حبيبتي .
أنا أعلم أن البالون لن يصل إليك .
فدونه رصاص الجنود .
و دونه مدافع اليهود .
و دونه حدود و حدود .
فإن كُتِبَتْ له السلامة و النجاة ..
و رأيتِه يطير في جو الفضاء ..
و يحلّق في سماء بلدنا ..
و يمر فوق بيتنا..
أو سمعت في الأخبار عبر الإذاعة و التلفزيون ..
إن أباك قد أُرسل لك بالوناً ..
و كتب عليه اسمك .
فاعلمي أني أحبك
و أني ما نسيتك
و أني مشتاق إليك .
و عسى أن نلتقي قريباً ..

والدك المحب المبعد :

غسان عيسى محمد هرماس

1993/2/17م

إلى أخي

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على رسوله الأمين .

الأخ الحبيب رعاك اللّه و أيّدك و أراني وجهك عن قريب .

السلام عليكم و رحمة اللّه و بركاته :

أنا لم أنسَ نظراتك إليَّ و قد اقتادني الجنود أمامهم .

أنا لم أنسَ تلك النظرة الساهمة المودّعة .

لم تنطق شفتاك و لم تقوَ على النطق .

إذ منعت السلام و المصافحة .

بكلّ حب ، بكلّ صدق ، كلّ دعوة صالحة .

آه كم أتعبتك و كم أزعجتك .

لكنك كنت الأخ الأكبر دوماً .

كنت الأكبر سناً و كنت الأكبر فضلاً و مَنْزِلة .

فأنت الذي لم تنسني في كلّ مرات اعتقالي .

أنت الذي كنت توكِل لي المحامين .

و أنت الذي كنت تدفع لهم المئين .

أنت الذي كان أولادي يرون فيك شخصي .

أنا لم أنسكَ إذ كنت تحملهم في سيارتك .

و لم أنسَك إذ كنت تضع اللقم في أفواههم .

و تمسح الدموع من عيونهم و الأحزان عن وجوههم .

و تضمّهم إليك إذ أبعدهم عني ..

و ترضيهم إذ أغضبهم ...

و تعطيهم إذ أحرمهم ...

و تضحكهم إذ أبكيهم .

أنا لا يمكنني أن أنسى عبد اللّه و هو يتسلّل إلى أحضانك صباحاً .
فتضمه إليك و أنت تفطر فيفطر معك .
و لا أنسى أولادي و هم يهتفون كلما سمعوا بوق سيارتك .
عمي ، عمي ، أجا عمي ، أجا عمي .
أنا أشهد أني قصّرت معك و لم تقصّر
تقاعستُ و لم تتقاعس
و غضبتُ و لم تغضب
كنتَ الطاعم إذ جعتُ
و كنت الساقي إذ عطشتُ
و كنت الكاسي إذ عريت .
ما زلت أتخيّلك و أنت تتنقل بين ضيوفي تكرِمهم و كأنهم ضيوفك .
و تطعمني و تطعمهم و أنت آخرُ من يأكل .
و تضع اللقمة في فمي قبل أن تضعها في فمك .
إن لم أعرِفك فعتبة داري و درجات بيتي تعرفك .
تعرفك و تعرف خطواتك .
و أنت تزورني صباحاً و مساء .
في صحتي و في سقمي .
في لحظاتي كلّها .
حبات الدواء التي أسعفتني بها كلّما مرضت .
و أبواب الصيدليات التي لا أعرفها إذ كفيتنيها أيها الصيدلي .
تشهد لك يوم القيامة بأنك كنت المتفضل دوماً .
و الأكبر دوماً ، و الأجود دوماً .
في حِلّكَ و تَرحَالِك ، و غيبتك و حضورك .
يقول لي صديق بأنك طيّب و رجالك قيلي .
و حسبي بهذا فخراً أن كنتُ لك شقيقاً .
تركت لك حملاً تحمله فوق حملك .
و أعتذر لك عنه إذ كنت السبب فيه .
و أعتذر إليك من ثقفه .
لكنك كنت الراعي الأمين و ما زلت .
و الأخ الفاضل و لا زلت .
أنا مطمئن غير قلق ،
و سعيد غير تعيس
فقد استودعتهم عند من لا تضيع ودائعه (الله) .
و جعلتهم بعد ذلك في عهدتك .

هذي خواطر اصطدمها .
و مشاعر سطّرها .
و ضممتها إلى بعضها باقة ورد .
و جعلتها رسالة لك .
فهي أصدق عندي من كلّ الرسائل .
إذ كتبتها من قلبي و عواطفي .
و دموعي و أحزاني .
أستسمحك أخي أن أمسح دموعي .
و أُوقف سيل خواطري .
و أطوي صفحات مشاعري .
إذ أن ساعي البريد يستحثّني .
و حتى نلتقي لك حبي و تقديري .

أخوك المحب المبعد : غسان عيسى هرماس1993/2/20م

رسالة العيد

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على رسول اللّه
إلى أحبائي الصغار شقائق الروح و فلذات الكبد بمناسبة عيد الفطر المبارك أسطّر هذه الرسالة .
هاهو ذا العيد يأتي .
و أنا بين صخور المرج قابع .
أذكر ابتساماتكم .
و أذكر فرحتكم .
أذكر حركاتكم و أصواتكم
و أذكر ثيابكم و أشكالكم .
أذكر صلاة العيد .
و جلوسكم بجواري .
أذكر فرحتكم بالشواقل .
و فرحتكم باللعب .
أذكر أمّكم تقول لكم تعلّمكم :

سلّموا على أبيكم .
قولوا له : كل عام و أنت بخير .
مبارك عليك العيد .
كيف أنسى قبلاتي و ضمّي لكم ..
و عطفي عليكم .
أنا لا أستطيع أن أنسَى تلك العيون الزاهرة ،
و تلك الوجوه الفرحة المسرورة بمسدسات البلاستيك الكبسولية ،
و عرائس البنيّات الجميلة .
أنا إن كنت في هذا اليوم سأنسى ذلك .
فإنما أنسى نفسي و روحي .
أنسى وجودي و كياني .
و ماضيّ و آمالي
أنسى الجزء المهم من حياتي .
أنا في هذا العيد .
إن حبست دموعي فلأنني أحبكم
و إن كتمت أشواقي في صدري فلأنني أحبكم
و إن دحرت ضعفي و أعلنت عزيمتي فلأنني أحبكم
و لأنني أردت لكم أن تكونوا أبناء رجل .
يستعلي على الطغيان .
و يكره الضعف و الأحزان .
أنا إن لم أبكِ في هذا اليوم .
مع علمي أنّ من البكاء ما هو رحمة .
فلأنني أعلنت استعلاءً على استعلاء .
وعزيمة فوق عزيمة .
و صبراً على صبر .
ما كنت لأبكي .
و ما كنت لأجبن .
و ما كنت لأعلن ضعفي و حزني .
فخلفي دينٌ
إن لم أحمله أَثمت .
و إن تركته جحدت نعمة ربي عليَّ .
أنا أجزم بأن الألم في هذا اليوم
يحز بقلبي و قلوبكم .
إذ أنا بعيد عنكم .

لا أقدر على ضمّكم .
و لا لثم أفواهكم .
و لا ملاعبتكم و مداعبتكم .
و لا شرائي الجديد من الملابس لكم .
و لا أخذكم إلى بيت عمّتكم .
كأني أراكم و قد احتفى كلّ والد بأولاده .
و آنس كلّ صغير بأبيه .
كأني أرى في عيونكم دمعة محبوسة .
حبسها الحياء من أترابكم .
أن يفضحوكم و هم لا يشعرون .
و لو علموا حقيقة الأمر
لبكوا لبكائكم .
و حزنوا لحزنكم .
و للعنوا ألف مرة من أخرَج أباكم .
كفكفوا الدموع أحبابي .
فما يليق بي الحزن و لا بكم البكاء .
و سنلتقي يوماً بإذن الله ..
رغم الحدود .
رغم السدود .
و رغم آلاف اليهود ..
سنلتقي
لنمضي معاً إلى المسجد
مردّدين.
اللّه أكبر اللّه أكبر اللّه أكبر ، لا إله إلاّ اللّه
اللّه أكبر اللّه أكبر و للّه الحمد .

والدكم المبعد :

غسان عيسى محمد هرماس

1993/3/23

مسيرة اللّقاء

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على رسوله الأمين .

ترامى إلى مسامعي أنّ أبناء المبعدين سيخرجون في محاولة لمقابلة آبائهم عبر رأس الناقورة و خلت أبنائي بينهم فسَطرت هذه الأشواق و الخواطر .

أعتذر إليكم يا أولادي .

أعتذر إليكم إذ تتعبون .

و إذ تشقون .

و إذ تسافرُون .

و أنا أعلم أنَّه بيني و بينكم حدود .

و أشواك و سدود .

و آلاف اليهود .

ها أنا ذا اليوم أسير .

تحت الشمس أسير .

علّي أراكم .

أسير و أجزم أنّي لن أراكم .

غير أني سأقف فوق جبال الجنوب .

أنظر نحو فلسطين .

نحو الجليل و المَطَلَّة

علّي أراكم

أرى حافلاتكم

أرى ثيابكم

أرى شخوصكم .

أرى أيديكم تُلَوِّح لي .

تشير لي : أنا هنا يا أبي .

أرى عيونكم.

تتلفت يمنة و يسرة .

علّها تحظى بنظرة من أبيكم .

أو بإشارة منه

وا .. لهف نفسي .

إذ ترجعون و أرجع و لا نلتقي .

وا .. لهف قلبي .

إذ يمنعكم اليهود و الجنود .

أن تركضوا نحْوي .
أن تنادوني باسمي .
أن تقولوا بابا نحْن نحبك .
وا .. حسرتاه
إذ تمنعني الحدود
و الرشاشات و الجنود .
أن أضمّكم إلى صدري
أن ألثم وجناتكم.
و أبكي فرحاً بكم .
أنا أعلم أنّهم سيمنعوني من رؤيتكم .
و سيتحجّجون لكم بالأعذار .
و يقولون لكم :
كنا سنسمح لكم لو كنتم تحملون تأشيرة دخول .
و أقسم أنكم لو حملتموها
لتعللوا بعشرات الأعذار .
لا تألموا إذا علمتم أنكم سترجعون
لا تحزنوا إذا منعتم من الدخول .
فأنا فرح بكم .
فرح بقدومكم .
فرح إذ تجاهدون و تسافرون
و إذ تتعبون و تنصبون
و أنتم تصنعون تاريخاً للأمة .
و تبنون مجداً لبلادكم لا يزول .
صغاري
كبار أنتم إذ تصنعون تاريخاً
عظماء أنتم إذ تبنون مجداً
أعتذر إليكم .
إذ ولدتكم للهموم و الغموم .
في زمن الرويبضات .
و الشقاء و النحوس .
في زمن المساومات و المفاوضات .
لا تحزنوا .
فإني سألت اللّه إذ أنجبتكم .
أن تكونوا عدّة الحاضر .

و أمل المستقبل .

و الله يحفظكم .

و يتولاكم بعنايته ..

والدكم المبعد :

غسان عيسى محمد هرماس

1993/3/25م

إلى الزوجة الغالية

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على رسوله الأمين .

إليك أيتها الزوجة الغالية .

أسطّر السطور .

و أكتب الحروف .

و أبعث باقات وردٍ

من مرج الزهور

أعيش الذكريات

و أصطَاد الخواطر

أحَيِّي الرسائل

و أشتم أريج الورود

تحمله نسمات الربيع

فلعله بعض عبير

ورود حديقتنا

حيث أنت

أنا ما نسيت الوَّد الذي تعرفين

و لا هجرت البيت الذي تسكنين .

و لا بحثت عن سلوى في دروب العاشقين .

فأمري أعظم مما تظنّين .

أنا مسلم أعلنت إسلامي .

و سللت ضعفي من فؤادي و وجداني .

و أعلنت التحدي لكلّ كفارٍ و خوّان .
لا تلوميني/ إذ أعلنت التحدي .
على سجّاني و قيدي .
و رَفضت كل أنصَاف الحلول
و قلت :
دون رباك يا فلسطين حتفي .
لا تلوميني .
فأنا ما خنت قضيتي ،
و لا تاجرت بعروبتي .
و لا فرّطت بشبر
من مسرى النبي .
لا تلوميني / فقد أعلنتها للمحقّق .
صريحة غير خافية .
أني أُريد بلادي كاملة .
و أنني أريدها هي
لا أريد بلاداً ثانية .
زوجتي الغالية
أنا ما ابتعدت بخاطري .
و لا سعيت خلف دنيا مغرية .
و متعة زائلة .
و فرش وثيرة .
و أموال وفيرة .
و لكنني أبْعِدْتُ و لم أبتعِد
و نُقلتُ و لم أنتقل .
و هُجِّرتُ و لم أهاجر .
و نُفيتُ و لم أنْفِ نفسي .
لم يكن لي اختيار .
و أي خيارٍ لمعتقل
بين الحراب و الرشاشات .
و أي خيارٍ
لمعصوب العينين
مقيد اليدين و القدمين .
ما كان لي أن أفارقكم .
و ما كان بودي أن أترككم .

و لكنكِ تذكرين.
أنني أُنتزِعْتُ انتزاعاً
و أخرِجتُ إخراجاً
و أُبعِدتُ إبعاداً
و على بعد المسافات و طول السفر .
سطّرت رسالتي على ضوء القمر .
حمّلْتها خواطري .
و أشواق صدري المستعر .
و رجوت أن تحظى منك
بأجمل ردّ .

زوجك المحب المبعد :
غسان عيسى محمد هرماس
1993/4/10م

إلى صهري العزيز

صهري العزيز الغالي
كنت أودُّ أن أراكَ
قبل مسيري هذا
بعدما بلغني أنك ستأتي .
و لقد انتظرتك و لم تأتِ.
و اليوم أسير و لم أركْ .
فإن كتب اللّه عليّ الموتَ .
فأسأله أن تكون شهادة
و أسألك أن تدعو لي .
و إنْ تكن الأخرى
فعسى أن نلتقي .
و أستودعك الله .

و السلام عليكم و رحمة اللّه

صهرك و أخوك المشتاق :

المبعد غسان عيسى محمد هرماس

1993/4/16م

إلى طالبات مدرسة رياض الأقصى الإسلامية الثانوية للبنات – صور باهر

بناتي العزيزات .

الآنسات المؤنسات

الغاليات الغاليات

إليكن أخط الكلمات

و أُرسل التحيات

من والدٍ عاش بين بناتِه

يحنو عليهن .

يعلّمهنّ .

يرفق بهنّ .

يؤدبهنّ .

يَرَاهُنَّ الكون كلّه .

يَرَاهُنَّ المستقبل و الأمل .

بناتي الغاليات .

عشت بينكن .

أحب لَكُنَّ الخير كلّ الخير .

و أكره الإسفاف .

أكره الحقير مِنَ الأمور .
أكره التبذّلَ و السفور.
عشت بينكنّ .
أَنظر إليكنّ كما أَنظر لبناتي
لهاجر و صفيّة
كم حملت همومكنّ معي إلى بيتي .
كم استشرت في شأنكنّ زوجتي .
كم حزنت لحزنكنّ .
و كم مقتّ نفسي لإغضابي بعضكن .
تالله ما بخلت لَكُنّ بالنصيحة .
و ما كتمتها إذ عرفتها .
أردت لكنّ الخير
وأردت لكنّ الصلاح
و الفلاح .
و اليوم أكتب إليكنّ و أنا بعيد
لا أعلم من أخباركنّ شيئاً .
خواطر تزورني .
و هواجس تقتحم عليّ غربتي .
تسُرني تلك الذكريات .
و أنا بينكنّ أهمس في آذانكن
بكل نصيحة صادقة
أطوف على الصفوف
صفاً صفاً .
أقتحم الأبواب
لأستجلي الأخبار .
فلعل فيكن حزينة .
أو كسيرة خاطرٍ .
أو كسولة .
أذرع الساحة جيئةً و ذهاباً .
أعدّ الجداول .
و أحمل المقاعد .
و أنا رغمَ التعب
مسرورٌ مسرور .
وتكاد تقتلني هواجس

إذ أراكن فيها تعيسات
عن الإسلام بعيدات
و للصلوات تاركات
تائهات مستهترات .
و يمسح أحزاني
علمي بأنكنّ فاضلات بنات فاضلات
مجتهدات غير كسولات
مصليات عابدات
محتشمات غير سافرات
مؤدّبات غير عاصيات
أنا سعيد رغم البعد
و يزيد سعادتي
أني والد لمثلكن
و أنكن بنات لمثلي
و مع الاعتذار و المودّة

والدَكُنّ المبعد :
غسان عيسى محمد هرماس
1993/4/23م

مسيرة الأكفان

أسير نحو زمريا و أخط هذه السطور إلى أهلي الأحبة
و لست أدري فلعلها الرسالة الأخيرة ، و لذا فقد
حمّلتها همومي و خواطري و هواجس نفسي .
أهلي الأحبة .
من معبر زمريا أكتب إليكم .
من وسط مسيرة الأكفان أقول لكم .

أنا ما سلكت طريقاً لا أعرف آخره
و لا أقحمت نفْسي خطراً أجهله .
أنا إن رزِقت الشهادة فلست بنادم
بل أنا إليها ساعٍ و عازم
أنا إنْ لبست الكفن.
و أعلنت الحرب على الوثن .
و قررّتُ المسير
نحو أهلي و الوطن .
فلا تحسبوني
قد سلبت عقلي .
و سرت نحو حتفي .
و أهلكت نفسي بنفسي .
فلست بالمغامر دون تدبّر .
و لا بالذي يسيرُ و لا يدري إلى أين المسير .
أنا يا قوم مسلم
أفهم الحقيقة الحقيقة .
و أدرك التواطؤ و المؤامرات الحقيرة .
و أحسب ألف حساب
مع الجموع
و حبذا هذي الجموع
جموع المبعدين الرافضين لكلّ أصناف الخضوع.
أهلي الأحبّة .
لأنّ المكر المكر عظيم .
و التآمر خطير .
كان لا بدَّ مِنَ المسير .
علّنا بموتنا نوْقظ أحاسيس ميتة ،
لأمة استطابت الخنوع
و استمرأت الهوان.
سنلقي بأنفسنا
في أحضان الموت
لنصنع حياةً للأموات
فإن نَمُت
فتلك شهادة طالما تمنّيناها
و إنْ تكن حياة

فحسبنا
أنّا بذلنا جهدنا
و جهدنا في نصرة ديننا
و الله غالب على أمره

إبنكم المبعد :
غسان عيسى محمد هرماس
1993/4/16م

رسالة إلى المسجد الأقصى

يا مسجدي المحزون ،
في ذكرى ضياعك
أرسل لك هذه الرسالة
بعدما ضمّنتها اللواعج و الخواطر .
و الآمال و الآلام .
و الأنين و الحنين.
فأنا لم أنسكْ.
و هل يحقّ لمثلي أن ينسى مثلكْ
فأنت أنت الوحيد
و أنت أنت الفريد
و أنت بعد أخويك لنا عيد .
أنا يا مسجدي الحبيب
من خضّبَ ترابك جبيني .
و من كان شوقي إليك دوماً و حنيني
و كنت ملء سمعي و عيوني
لا تلمني إن سكبت اليوم الدموع
و انطوت منّي على الشوق الضلوع .
و أصبحت أذوي كما تذوي الشموع .
لطالما حملت زوجتي و أطفالي إليك
يسرحون و يمرحون في دروبك
و على مصاطبك و ساحاتك .
و لطالما حملت طالباتي إليك .

يؤدّين الصلوات .
و يسمعن المحاضرات .
ثم يرجعن إلى مسكنهن فرحات مسرورات .
لله درّ تلك الليالي الغاليات .
ليالي الصيام و الطاعات .
ليالي الإفطار الجماعية .
و الركعات الطويلات الرائعات .
لله درّ تلك الجمعات الغرّاء .
و تلك الليلة الزهراء .
ليلة القدر و الخير و السَّناء
فيها الألوف المؤلفة .
الصفوف المرصوصة .
و الأكف المرفوعة الضارعة .
تسأل المولى أن يَحْميكْ
و أن يرفع الأذى عنك و عن محبّيك .
في نواحيك كانت لي ذكريات
و صلوات و دعوات
و في أرجائك كانت قصص و حكايات
و أحداث جسام داميات
فقبّتك تذكّر بأمجاد الملوك الأمويين .
و منبرك يعبق بأريج صلاح الدين .
و تحت قبتك النحوية كان يُدَرِّس أبو حامد حجة الإسلام
و الدين .
و على ثراك شهداء ماتوا و هم
يدفعون عنك رجس اليهود .
و طمع اليهود .
و مكر اليهود .
أمجاد عظيمة عظيمة
و ذكريات حديثة قديمة .
تشينها في زماننا الحقيقة الحزينة ،
حقيقة الضعف
و الجبن
و الهزيمة .
و ها أنا اليوم عنك بعيد .

يمنعني من الوصول إليك اليهود .
و أستارٌ من الحجارة و الحديد .
غير أن شوقي إليك في كلّ يوم يزيد .
فلا تلمني و ليس مثلك من يلوم .
فأنا في غرْبتي
أحمل الهموم و الآلام و الشجون
و يشفع لي عندك
أنني لك محبْ .
و أنك عندي في سويداء القلبْ .
و حتى يأذن اللّه بالإيابْ .
و العودة بعد طول الغيابْ .
لك مني التحية و السلامْ .
و الدعاء لك بطول الحفظِ و الدوام .

خادمك المبعد :

غسان عيسى محمد هرماس

1993/6/5م

خاتمة

منذ أن داهم جنود الاحتلال بيوتهم أو زنازينهم ، و اقتادوهم منها ، و هم في عنت و ضيق ، الأعين معصوبة ، و الأيدي مقيّدة إلى ظهورهم ، و الجند يدفعونهم إلى الشاحنات دفعاً ، و يحشرونهم في صناديقها حشراً .
و رأى بعضهم ، قبل أن تعصب عيناه ، و تخيّل الآخرون الهلع و الذهول الذي أصاب أطفالهم و أزواجهم و آباءهم و أُمهاتهم ، و الجند يقتادونهم إلى المصير المجهول ، و ألقيَ بالقوم في مرج العقارب – الذي أصبح يعرف بمرج الزهور– و أطلقت عليهم الرشاشات ليبتعدوا عن حدود فلسطين ، ففتحوا أعينهم على مأساة دامت عدة أشهر .
و لكن البرد القارس ، و الثلج المتراكم حولهم و فوق خيامهم ، و نقص الأطعمة ، و ما إلى ذلك ... لم يشغلهم عن أهلهم و ذويهم ، عن أطفالهم و أزواجهم ، عن أرضهم و مقدّساتهم ... فبدؤوا يرسلون الرسائل تلو الرسائل .

إن الجيل و هو يقرأ (رسائل مبعد) هذه ، سيطّلع على مأساة داهمت أُمتنا في هذا العصر ، لم يسبق لها مثيل ... و أخاله سيعمل جاهداً على إنقاذ أمتنا من هذه المأساة ، و استنقاذ فلسطين من براثن الغزاة المحتلين ، و تحقيق آمال كلّ المبعدين في العودة إليها ظافرين و منتصرين .